سُورَةُ طَـهَ

مَكِّيَّةٌ [إلاَّ آيَتَي ١٣٠ و١٣١ فَمَدَنِيَّتَانِ]
وَهِيَ ١٣٥ آيَةً [نَزَلَتْ بَعْدَ مَرْيَم]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٣) تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (٤)﴾

﴿طه (١)﴾: أبو عمرو؛ فخم الطاء لاستعلائها، وأمال الهاء وفخمها ابن كثير وابن عامر على الأصل، والباقون أمالوهما، وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: «طه»، وفسر بأنه أمر بالوطء، وأن النبي ـ ﷺ ـ كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه، فأمر بأن يطأ الأرض بقدميه معاً (٩٤٤). وأن الأصل طأ، فقلبت همزته هاء، أو قلبت ألفاً في يطأ فيمن قال

---

٩٤٤ ـ أخرجه البزار رقم (٢٢٣٢ ـ كشف) حدثنا محمد بن إسحاق البغدادي ثنا عبيد الله بن موسى ثنا كيسان أبو عمر عن يزيد بن بلال عن علي قال: كان النبي ـ ﷺ ـ يراوح بين قدميه يقدم على كل رجل حتى نزلت: ﴿طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢)﴾.

ذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥١٦) وحسن إسناده قال الهيثمي (٧/ ٥٩) في المجمع، «رواه البزار وفيه يزيد بن بلال قال البخاري: فيه نظر، وكيسان أبو عمرو وثقه ابن حبان وضعفه ابن معين، وبقية رجاله رجال الصحيح».

وأخرجه البيهقي في الشعب (٢/ ١٨٦) رقم (١٤٩٧) أخبرنا أبو علي الروذباري أنا الحسين بن الحسن بن أيوب الطوسي ثنا أبو يحيى عن أبي مسرة ثنا خلاد بن يحيى ثنا محمد بن زياد السكري ثنا ميمون بن مهران عن ابن عباس أن النبي ـ ﷺ ـ أول ما أنزل عليه الوحي كان يقوم على صدر قدميه فأنزل الله عز وجل: ﴿طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢)﴾.

ذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥١٦)، وعزاه لابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان.

قال الحافظ: أخرجه عبد بن حميد في تفسيره قال: حدثنا هاشم بن القاسم بن أبي جعفر، عن الربيع بن أنس قال: كان النبي ـ ﷺ ـ قام على رجل ورفع الأخرى، فأنزل الله: «طه» يعني طأ الأرض» وروى ابن مردويه من طريق قيس بن الربيع، عن قطر بن خليفة، عن منذر الثوري عن محمد بن الحنفية، عن علي: «لما نزل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١)﴾ قام الليل كله حتى ورمت قدماه، فجعل يرفع رجلاً ويضع الأخرى، فهبط عليه جبريل، قال: «طه طأ الأرض بقدميك يا محمد» وأخرجه البزار من وجه آخر عن علي: «كان النبي ـ ﷺ ـ يراوح بين قدميه يقوم على كل رجل =

[من الكامل]: :

. . . . لاَ هَـنَـاكَ الْـمَـرْتَـعُ[1]

ثم بنى عليه الأمر، والهاء للسكت ٢/ ١٠أ، ويجوز أن يكتفي بشطري الاسمين، وهما: الدالان بلفظهما على المسميين، والله أعلم بصحة ما يقال: إن «طاها»: في لغة عك[2] في معنى: يا رجل، ولعل عكا تصرفوا في: «يا هذا» كأنهم في لغتهم قالبون الياء طاء، فقالوا في «يا»: «طا»، واختصروا هذا فاقتصروا على ها، وأثر الصنعة ظاهر لا يخفى في البيت المستشهد به [من البسيط]:

إِنَّ الـسَّـفَـاهَـةَ طَـاهَـا فِـي خَـلاَئِـقِـكُـمْ لاَ قَـدَّسَ الـلَّـهُ أَخْـلاَقَ الْـمَـلاَعِـيـنِ[3]

حتى نزلت ﴿طه مَآ أَنزَلْنَا . . .الآية﴾ ومن طريق نهشل، عن الضحاك، عن ابن عباس في قوله تعالى: (طه) قال: «إن رسول الله ـ ﷺ ـ ربما قرأ القرآن إذا صلى، فقام على رجل واحدة، فأنزل الله طأها برجليك» وأخرجه البيهقي في الشعب الرابع عشر من وجه آخر عن ميمون بن مهران عن ابن عباس «أن النبي ـ ﷺ ـ أول ما أنزل عليه الوحي كان يقوم على صدور قدميه إذا صلى. فأنزل الله (طه). انتهى.

(١) نزع ابن بشر وابن عمرو قبله وأخو هراة لمثلها يتوقع
راحت بمسلمة البغال عشية فارعى فزارة لاهناك المرتع

للفرزدق، يهجو عمرو بن زهرة الفزاري، وقد ولي العراق بعد عبد الملك بن بشر بن مروان، وكان على البصرة ومحمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة، وكان على الكوفة. يقول: ذهب ابن بشر وابن عمرو، وأخو هراة أي صاحبها وواليها. وهراة من بلاد العراق أيضاً. يتوقع: أي يترقب وينتظر مثل حاله من قبله. راحت، وروي: مضت، أي ذهبت البغال بمسلمة بن عبد الملك كما يفيد شرح المراح، وكان يمنع بني فزارة من الرعي في أرض العراق، ففر إلى الشام وترك الملك، فارعى يا فزارة ما شئت يخاطب القبيلة بذلك، وإشارة إلى أنه كان محرماً عليهم، فأبيح بعد مسلمة. وارعى: بفتح العين وسكون الياء؛ لأن مضارعه مفتوح العين. ولا هناك المرتع: دعا عليهم. يقال: هناك الطعام ومراك، بتخفيف الهمز: انهضم في بطنك وأراحك ونفعك، فإذا انفرد الثاني قلت: أمراك الطعام، وتخفيف الهمزة بقلبها ألفاً: صرفه كما هنا شاذ، وقياس تخفيفها في مثل هذا جعلها بين بين لعدم سكون ما قبلها.

(٢) قوله «في لغة عك» في الصحاح عك بن عدنان أخو معد وهو اليوم في اليمن. (ع)

(٣) السفاهة: الجهل والحمق والخفة. و«طه» في لغة عك، معناه يا هذا، فكأنهم قلبوا الياء طاء وحذفوا ذا. قال الزمخشري: ولا يخفى التصنع في البيت. والخلائق: الطبائع، ودعا عليهم بأن الله لا يطهر أرواحهم. ووضع المظهر موضع المضمر لزيادة الذم والتشنيع. وقيل: للدلالة على سبب الدعاء، أي: فإنهم ملعونون، ولعل معناه: فإنهم مستحقين للعن وفاعلون سببه.
ينظر: حاشية الشهاب (٦/ ١٧٨)، والطبري (١٦/ ١٣٦)، ومجمع البيان (٤/ ٢)، والفخر الرازي (٢٢/ ٣)، والبحر (٦/ ٢٤٤)، والدر المصون (٥/ ٣).

والأقوال الثلاثة في الفواتح، أعني: التي قدمتها في أول الكاشف عن حقائق التنزيل، هي التي يعوّل عليها الألبّاء المتقنون، ﴿مَآ أَنزَلْنَا﴾: إن جعلت ﴿طه ۝١﴾: تعديداً لأسماء الحروف على الوجه السابق ذكره فهو ابتداء كلام، وإن جعلتها اسماً للسورة احتملت أن تكون خبراً عنها، وهي في موضع المبتدأ، و﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾: ظاهر أوقع موقع الضمير؛ لأنها قرآن، وأن يكون جواباً لها وهي قسم، وقرئ: «ما نزل عليك القرآن» ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾: لتتعب، بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم، وتحسرك على أن يؤمنوا؛ كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الشعراء: ٣]، والشقاء يجيء في معنى: التعب، ومنه المثل: أشقى من رائض مهر، أي: ما عليك إلا أن تبلغ وتذكر، ولم يكتب عليك أن يؤمنوا لا محالة، بعد أن لم تفرط في أداء الرسالة والموعظة الحسنة، وقيل: إن أبا جهل والنضر بن الحارث، قالا له: إنك شقي؛ لأنك تركت دين آبائك، فأريد ردّ ذلك بأن دين الإسلام وهذا القرآن هو السلم إلى نيل كل فوز، والسبب في درك كل سعادة، وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها، وروي أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ صلى بالليل حتى اسمغدت[1] قدماه، فقال له جبريل ـ عليه السلام ـ: أبق على نفسك؛ فإن لها عليك حقاً (٩٤٥)، أي: ما أنزلناه لتنهك نفسك

---

٩٤٥ ـ قال الحافظ: لم أره هكذا، وفي الدعوات الكبير للبيهقي عن عائشة قالت: لما كانت ليلة النصف من شعبان ـ فذكر حديثاً طويلاً ـ وفيه: فما زال يصلي قائماً وقاعدا حتى أصبح وحتى اسمغدت قدماه، فقمت أغمزها ـ الحديث وليس فيه كلام جبريل.

وذكره الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣٤٨/١) فقال:

«روى البيهقي في كتاب الدعوات الكبير: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرني أبو صالح خلف بن محمد ثنى صالح بن محمد الحافظ ثنا محمد بن عباد حدثني حاتم بن إسماعيل المدني عن نصر بن كثير عن يحيى بن سعيد عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت: لما كانت ليلة النصف من شعبان انسل رسول الله ـ ﷺ ـ من مرطي ثم قالت: والله، ما كان مرطنا من خزّ ولا قز، ولا كرسف، ولا كتان، ولا صوف قلنا: سبحان الله! فمن أي شيء؟ قالت: إن كان سداه لشعراً وإن كانت لحمته لمن وبر الإبل قالت: فخشيت أن يكون أتى بعض نسائه فقمت ألتمسه في البيت فتقع قدمه على قدمي وهو ساجد فحفظت من قوله: «سجد لك سوادي وآمن لك فؤادي أبوء لك بالنعم، واعترف لك بالذنوب، ظلمت نفسي فاغفر لي ذنوبي؛ إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» قالت: فما زال رسول الله ـ ﷺ ـ يصلي قائماً وقاعداً حتى أصبح وحتى اسمغدت قدماه، فقمت اغمزها وأقول: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أتعبت نفسك أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: يا عائشة، «أفلا أكون عبداً شكوراً».

قال الحافظ: لم أره هكذا. وفي الدعوات الكبير للبيهقي عن عائشة، قالت: «لما كانت ليلة النصف من شعبان، فذكر حديثاً طويلاً ـ وفيه: فما زال يصلي قائماً وقاعداً حتى أصبح وحتى اسمغدت قدماه. فقمت أغمزها ـ الحديث. انتهى.

---

(١) قوله «حتى اسمغدت» بالغين المعجمة، أي: تورمت. أفاده الصحاح. (ع)

بالعبادة وتذيقها المشقة الفادحة، وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة، وكل واحد من (لتشقى)، و(تذكرة): علة للفعل، إلا أن الأول وجب مجيئه مع اللام؛ لأنه ليس لفاعل الفعل المعلل ففاتته شريطة الانتصاب على المفعولية، والثاني: جاز قطع اللام عنه، ونصبه؛ لاستجماعه الشرائط.

فإن قلت: أما يجوز أن تقول: ما أنزلنا عليك القرآن أن تشقى؛ كقوله تعالى: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾؟ [الحجرات: ٢] قلت: بلى، ولكنها نصبة طارئة، كالنصبة في: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾، وأما النصبة في تذكرة، فهي كالتي في: ضربت زيداً؛ لأنه أحد المفاعيل الخمسة التي هي أصول وقوانين لغيرها.

فإن قلت: هل يجوز أن يكون (تذكرة): بدلاً من محل: (لتشقى)؟

قلت: لا؛ لاختلاف الجنسين، ولكنها نصب على الاستثناء المنقطع الذي «إلا» فيه بمعنى: «لكن»[(١)]، ويحتمل أن يكون المعنى: إنا أنزلنا عليك القرآن لتحتمل[(٢)] متاعب التبليغ، ومقاولة العتاة من أعداء الإسلام ومقاتلتهم وغير ذلك من أنواع المشاق وتكاليف النبوّة، وما أنزلنا عليك هذا المتعب الشاق إلا ليكون تذكرة، وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون تذكرة حالاً ومفعولاً له، ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ﴾: لمن يؤول أمره إلى الخشية، ولمن يعلم الله منه أنه يبدل بالكفر إيماناً وبالقسوة خشية، في نصب: ﴿تَنزِيلًا﴾ وجوه: أن يكون بدلاً من تذكرة إذا جعل حالاً، لا إذا كان مفعولاً له؛ لأن الشيء لا يعلل بنفسه، وأن ينصب بنزل مضمراً، وأن ينصب بأنزلنا؛ لأن معنى: ما أنزلناه إلا تذكرة: أنزلناه تذكرة، وأن ينصب على المدح والاختصاص، وأن ينصب بيخشى مفعولاً به، أي: أنزله الله تذكرة لمن يخشى تنزيل الله، وهو معنى حسن وإعراب بين، وقرئ: «تنزيل»: بالرفع على خبر مبتدأ محذوف، ما بعد (تنزيلا) إلى قوله: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ تعظيم وتفخيم لشأن المنزل، لنسبته إلى من هذه أفعاله وصفاته، ولا يخلو من أن يكون متعلقه إما: (تنزيلاً) نفسه فيقع

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: يعني باختلاف الجنسين أن نصب التذكرة نصبة صحيحة ليست بعارضة والنصبة التي تكون في «التشقى» بعد نزع الخافض نصبة عارضة والذي يقول: إنه ليس له محل ألبتة فيتوهم البدل منه. قلت: مراد الزمخشري باختلاف الجنسين إلا ما ذكرته عن الفارسي رداً على الزجاج وأي أثر لاختلاف النصبتين في ذلك؟. انتهى. الدر المصون.

(٢) قال محمود: «ويحتمل أن يكون المعنى إنا أنزلنا عليك القرآن لتحتمل... إلخ» قال أحمد: وفي هذا الوجه الثاني بعد؛ فإن فيه إثبات كون الشقاء سبباً في نزوله عكس الأول وإن لم تكن اللام سببية فكانت للصيرورة مثلاً ولم يكن فيه ما جرت عادة الله تعالى به مع نبيه ﷺ من نهيه عن الشقاء والحزن عليهم وضيق الصدر بهم، وكان مضمون هذه الآية متبايناً عن قوله تعالى ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾، ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ وأمثاله كثيرة فالظاهر والله أعلم هو التأويل الأول.

صلة له، وإما محذوفا فيقع صفة له.

فإن قلت: ما فائدة النقلة من لفظ المتكلم إلى لفظ الغائب؟

قلت: غير واحدة منها عادة الافتنان في الكلام وما يعطيه من الحسن والروعة، ومنها أنّ هذه الصفات إنما تسردت مع لفظ الغيبة، ومنها أنه قال أولاً: (أنزلنا)، ففخم بالإسناد إلى ضمير الواحد المطاع، ثم ثنى بالنسبة إلى المختص بصفات العظمة والتمجيد فضوعفت الفخامة من طريقين، ويجوز أن يكون: (أنزلنا): حكاية لكلام جبريل والملائكة النازلين معه، وصف السموات بالعلا: دلالة على عظم قدرة من يخلق مثلها في علوها وبعد مرتقاها.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾

قرئ: (الرحمن): مجروراً صفة لمن خلق والرفع أحسن؛ لأنه إما أن يكون رفعاً على المدح على تقدير: هو الرحمن، وإما: أن يكون مبتدأ مشاراً بلامه إلى من خلق.

فإن قلت: الجملة التي هي ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾: ما محلها ـ إذا جررت الرحمن أو رفعته على المدح؟

قلت: إذا جررت فهي خبر مبتدأ محذوف لا غير، وإن رفعت جاز أن تكون كذلك، وأن تكون مع الرحمن خبرين للمبتدأ؛ لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يردف الملك، جعلوه كناية عن الملك فقالوا: استوى فلان على العرش، يريدون: ملك وإن لم يقعد على السرير ألبتة، وقالوه ـ أيضاً ـ لشهرته في ذلك المعنى ومساواته ٢/ ١٠ب ملك في مؤدّاه وإن كان أشرح وأبسط وأدل على صورة الأمر؛ ونحوه قولك: يد فلان مبسوطة، ويد فلان مغلولة، بمعنى: أنه جواد أو بخيل، لا فرق بين العبارتين إلا فيما قلت، حتى أنّ من لم يبسط يده قط: بالنوال أو لم تكن له يد رأساً قيل فيه: يده مبسوطة لمساواته عندهم قولهم: هو جواد؛ ومنه قول الله ـ عز وجل ـ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، أي: هو بخيل، ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ أي: هو جواد، من غير تصوّر يد ولا غل ولا بسط، والتفسير بالنعمة والتمحل للتثنية من ضيق العطن والمسافرة عن علم البيان مسيرة أعوام، ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾: ما تحت سبع الأرضين، عن محمد بن كعب (٩٤٦) وعن السدي: هو الصخرة التي تحت الأرض السابعة (٩٤٧).

---

٩٤٦ ـ أخرجه ابن جرير (٨/ ٣٩٢) رقم (٢٤٠٠٤) وذكر السيوطي هذا القول عن محمد بن كعب في الدر (٤/ ٥١٨) وعزاه لابن أبي حاتم.

٩٤٧ ـ ذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥١٨) وعزاه لابن أبي حاتم.

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾

أي: يعلم ما أسررته إلى غيرك وأخفى من ذلك، وهو ما أخطرته ببالك، أو ما أسررته في نفسك، ﴿وَأَخْفَى﴾: منه وهو ما ستسره فيها، وعن بعضهم: أن أخفى فعل[1]، يعني: أنه يعلم أسرار العباد وأخفى عنهم ما يعلمه؛ هو كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۝١١٠﴾، وليس بذاك.

فإن قلت: كيف طابق الجزاء الشرط؟

قلت: معناه: وإن تجهر بذكر الله من دعاء أو غيره، فاعلم أنه غني عن جهرك، فإما أن يكون نهياً عن الجهر؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وإما تعليماً للعباد أنّ الجهر ليس لإسماع الله؛ وإنما هو لغرض آخر، ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: تأنيث الأحسن، وصفت بها الأسماء؛ لأن حكمها حكم المؤنث؛ كقولك: الجماعة الحسنى، ومثلها: ﴿مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨]، و﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [طه: ٢٣]، والذي فضلت به أسماؤه في الحسن سائر الأسماء: دلالتها على معاني التقديس والتمجيد والتعظيم والربوبية، والأفعال التي هي النهاية في الحسن.

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠﴾

قفاه بقصة موسى ـ عليه السلام ـ ليتأسى به في تحمل أعباء النبوّة وتكاليف الرسالة والصبر على مقاساة الشدائد؛ حتى ينال عند الله الفوز والمقام المحمود، يجوز أن ينتصب: ﴿إِذْ﴾: ظرفاً للحديث؛ لأنه حدث، أو لمضمر، أي: حين ﴿رَءَا نَارًا﴾: كان كيت وكيت، أو مفعولاً لا ذكر استأذن موسى شعيباً ـ عليهما السلام ـ في الخروج إلى أمه

---

(١) قال محمود: «هو أفعل التفضيل، ومنهم من قال إن أخفى فعل ماض... إلخ» قال أحمد: لا يخفى أن جعله فعلاً قاصر لفظاً ومعنى: أما لفظاً فإنه يلزم منه عطف الجملة الفعلية على الإسمية إن كان المعطوف عليه الجملة الكبرى، أو عطف الماضي على المضارع إن كان المعطوف عليه الصغرى، وكلاهما دون الأحسن. وأما معنى: إن المقصود الحض على ترك الجهر بإسقاط فائدته من حيث أن الله تعالى يعلم السر وما هو أخفى منه، فكيف يبقى للجهر فائدة وكلاهما على هذا التأويل مناسب لترك الجهر. وأما إذا جعل فعلا فيخرج عن مقصود السياق وإن اشتمل على فائدة أخرى، وليس هذا كقوله تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۝١١٠﴾ لأن بين السياقين اختلافاً، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وخرج بأهله، فولد له في الطريق ابن في ليلة شاتية مظلمة مثلجة، وقد ضلّ الطريق وتفرّقت ماشيته ولا ماء عنده، وقدح فصلد زنده[1]، فرأى النار عند ذلك، قيل: كانت ليلة جمعة، ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾: أقيموا في مكانكم، الإيناس: الإبصار البين الذي لا شبهة فيه، ومنه إنسان العين؛ لأنه يتبين به الشيء، والإنس: لظهورهم، كما قيل: الجنّ لاستتارهم، وقيل: هو إبصار ما يؤنس به؛ لما وجد منه الإيناس فكان مقطوعاً متيقناً، حققه لهم بكلمة: «إنّ»؛ ليوطن أنفسهم، ولما كان الإتيان بالقبس ووجود الهدى مترقبين متوقعين، بنى الأمر فيهما على الرجاء والطمع وقال ﴿لَّعَلِّيٓ﴾ ولم يقطع فيقول: إني ﴿ءَاتِيكُم﴾ لئلا يعد ما ليس بمستيقن الوفاء به، القبس: النار المقتبسة في رأس عود أو فتيلة أو غيرهما، ومنه قيل: المقبسة، لما يقتبس فيه من سعفة أو نحوها، ﴿هُدٗى﴾ أي: قوماً يهدونني الطريق أو ينفعونني بهداهم في أبواب الدين، عن مجاهد وقتادة؛ وذلك لأنّ أفكار الأبرار مغمورة بالهمة الدينية في جميع أحوالهم لا يشغلهم عنها شاغل، والمعنى: ذوي هدى، أو إذا وجد الهداة فقد وجد الهدى، ومعنى الاستعلاء في: ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾: أنّ أهل النار يستعلون المكان القريب منها، كما قال سيبويه في مررت بزيد: أنه لصوق بمكان يقرب من زيد، أو لأنّ المصطلين بها والمستمتعين بها إذا تكنفوها قياماً وقعوداً كانوا مشرفين عليها؛ ومنه قول الأعشى [من الطويل]:

. . . . وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّدَىٰ وَالْمُحَلَّقُ[2]

---

(١) قوله «فصلد زنده» في الصحاح «صلد الزند» إذا صوت ولم يخرج نارا. (ع)

(٢)
لعمري لقد لاحت عيون كثيرة ... إلى ضوء نار في يفاع يخرق
تشب لمقرورين يصطليانها ... وبات على النار الندى والمحلق
رضيعي لبان ثدي أم تقاسما ... بأسحم داج عوض لا نتفرق

للأعشى يمدح المحلق ـ بكسر اللام ـ سمي بذلك لأن بعيره عضه في وجهه فبقي أثر العضة مثل الحلقة، وهو من بني عكاظ، كان فقيراً وله عشر بنات لا يرغب فيهن أحد لفقرهن، فانعزل بهن إلى بعض المهامه فنزل به الأعشى فنحر له ناقته ولم يكن عنده غيرها وأحسن قراه، فعظم عند الأعشى، فلما أصبح واستوى على راحلته قال له: ألك حاجة؟ قال: نعم، أن تسير بذكري في بني عكاظ، لعل أحداً يرغب في بناتي فقد مسهن العنس. فمدحه في عكاظ فلم يلبث حتى خطبت بناته، ولاحت: لمحت وتشوفت. واليفاع: المشرف من الأرض. يخرق: أي يخترق ذلك الضوء وينتشر في الأرض. ويروى: تحرق، بالحاء المهملة. والضمير للنار. وتشب: مبني للمجهول. ، يقال: شببت النار أشبها شباً وشبوباً: أوقدتها. والمقروران: اللذان أصابهما القر،أي: البرد، وأراد بهما الندى والمحلق، يعني أنه هو وكرمه ملازمان لنار القرى ملازمة المقرور لنار التدفؤ، وبين ذلك بقوله: وبات على النار الندى والمحلق. ويجوز أن الأعشى أراد نفسه والمحلق، لكن الأول أوقع في المدح، ومعنى كونهما عليها: أنهما على جانبيها ولأن المتدفئ يكون أعلى منها بحيث يمد يده فوقها. وعطف المحلق على الندى دلالة على أنهما متلازمان متقاربان. وبين ذلك بقوله: =

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾﴾

قرأ أبو عمرو وابن كثير (أني): بالفتح، أي: نودي بأني، ﴿أَنَا۠ رَبُّكَ﴾، وكسر الباقون، أي: نودي، فقيل: يا موسى، أو لأنَّ النداء ضرب من القول فعومل معاملته، تكرير الضمير في: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾؛ لتوكيد الدلالة، وتحقيق المعرفة وإماطة الشبهة، روي أنه لما نودي: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾، قال: من المتكلم؟ فقال له الله ـ عز وجل ـ : ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾، وأن إبليس وسوس إليه قال: لعلك تسمع كلام شيطان، فقال: أنا عرفت أنه كلام الله بأني أسمعه من جميع جهاتي الست، وأسمعه بجميع أعضائي، وروي أنه حين انتهى رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها كأنها نار بيضاء تتقد(١)، وسمع تسبيح الملائكة، ورأى نوراً عظيماً، فخاف وبهت، فألقيت عليه السكينة ثم نودي، وكانت الشجرة عوسجة، وروي: كلما دنا أو بعد لم يختلف ما كان يسمع من الصوت، وعن ابن إسحاق: لما دنا استأخرت عنه، فلما رأى ذلك، رجع وأوجس في نفسه خيفة، فلما أراد الرجعة دنت منه، ثم كلم، قيل: أمر بخلع النعلين؛ لأنهما كانتا من جلد حمار ميت غير مدبوغ عن السدي وقتادة (٩٤٨)، وقيل: ليباشر الوادي بقدميه متبركاً به، وقيل: لأن

---

٩٤٨ ـ أخرجه ابن جرير عن قتادة (٨/ ٣٩٧) رقم (٢٤٠٣٢ ـ ٢٤٠٣٣) وعزاه السيوطي في الدر (٤/ ٥٢٢) لابن أبي حاتم عن الزهري.

وروى الحاكم (٢/ ٣٧٩) كتاب التفسير أخبرنا الشيخ أبو بكر أحمد بن إسحاق أنبأ محمد بن غالب ثنا عمر بن حفص بن غياث. ثنا أبي وخلف بن خليفة عن حميد بن قيس عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يوم كلم الله موسى كانت =

= رضيعي لبان، وهو حال منهما، شبههما بالتوأمين دلالة على غاية التلازم حتى في الرحم بل وقبله. واللبان: لبن المرأة خاصة، وهو مضاف إلى ثدي أم، وتنوينها للإفراد وإضافته له؛ لأنه منه. ويجوز تنوينه. فثدي: بدل منه. والأسحم: الأسود الداجي المظلم. أي تحالفا كما هو رواية أيضاً في ليل مظلم. أو في الرحم المظلم. وعوض: ظرف مستقبل، نصب بما بعده. لا نتفرق: جواب التحالف، وكنى بذلك كله عن شدة التلازم بينه وبين الكرم.

ينظر: ديوانه (١٢١)، والمغني (١٠١)، واللسان (حلق)، والبحر (٨/ ٤٥١)، والدر المصون (٦/ ٥٠٣).

(١) قوله: «كأنها نار بيضاء تتقد... إلخ» عبارة الخازن «أطافت بها نار... إلخ» وعبارة النسفي بدل قوله: «رأى شجرة... إلخ»: «وجد ناراً بيضاء تتوقد في شجرة خضراء من أعلاها إلى أسفلها وكانت شجرة العناب أو العوسج». (ع)

الحفوة تواضع لله، ومن ثم طاف السلف ٢/١١أ بالكعبة حافين، ومنهم من استعظم دخول المسجد بنعليه، وكان إذا ندر منه الدخول منتعلاً تصدق، والقرآن يدل على أن ذلك احترام للبقعة، وتعظيم لها، وتشريف لقدسها، وروي أنه خلع نعليه وألقاهما من وراء الوادي، ﴿طُوًى﴾: بالضم والكسر منصرف وغير منصرف بتأويل المكان والبقعة، وقيل: مرتين؛ نحو: ثنى[1]، أي: نودي نداءين أو قدس الوادي كرة بعد كرة، ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾: اصطفيتك للنبوة، وقرأ حمزة: «وإنا اخترناك»، ﴿لِمَا يُوحَىٰٓ﴾: للذي يوحى، أو للوحي، تعلق اللام باستمع، أو باخترتك[2]، ﴿لِذِكْرِيٓ﴾: لتذكرني؛ فإن ذكري أن أعبد ويصلى لي، أو لتذكرني فيها لاشتمال الصلاة على الأذكار عن مجاهد، أو: لأني ذكرتها في الكتب وأمرت بها، أو لأن أذكرك بالمدح والثناء وأجعل لك لسان صدق، أو لذكري خاصة لا تشوبه بذكر غيري أو لإخلاص ذكري وطلب وجهي لا ترائي بها ولا تقصد بها غرضاً آخر، أو لتكون لي ذاكراً غير ناس فعل المخلصين في جعلهم ذكر ربهم على بال منهم وتوكيل هممهم وأفكارهم به، كما قال: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧]، أو لأوقات ذكري وهي مواقيت الصلاة؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، . واللام مثلها في قولك: جئتك لوقت كذا، وكان ذلك لست ليال خلون، وقوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٤]، وقد حمل على ذكر الصلاة بعد

= عليه جبة صوف وكساء صوف، وسراويل صوف وكمه صوف، ونعلاه من جلد حمار غير ذكي».

وقال: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه.

وتعقبه الذهبي بقوله: بل ليس على شرط البخاري، وإنما غره أن في الإسناد حميد بن قيس كذا وهو خطأ إنما هو حميد الأعرج الكوفي ابن علي أو ابن عمار أحد المتروكين فظنه المكي الصادق» اهـ.

قال الحافظ: لم أره هكذا، وفي الترمذي والحاكم عن عبد الله بن مسعود رفعه: «يوم كلم الله موسى، كان عليه جبة صوف ونعلاه من جلد حمار ميت، غير ذكي». انتهى.

(١) قوله «وقيل مرتين نحو ثنى» في الصحاح: وقال يعني بعضهم في قوله تعالى: ﴿بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ طوى مرتين، أي قدس. وفيه أيضاً «الثنى» مقصور: الأمر يعاد مرتين اهـ. فلعل أصل عبارته أيضاً: وقيل طوى مرتين يعني قدس وطهر مرتين. وظاهر العبارة أن طوى مثل ثنى بمعنى مرتين، أي: نودي موسى مرتين، أو قدس الوادي مرتين فهو منصوب بنودي أو بالمقدس. (ع)

(٢) قال السمين الحلبي: وقد رد الشيخ هذا، بأن قال: ولا يجوز التعليق باخترتك؛ لأنه من باب الإعمال فكان يجب أن يختار إعادة الضمير مع الثاني فكان يكون فاستمع له لما يوحي فدل على أنه من باب إعمال الثاني، قال السمين: الزمخشري عني التعليق المعنوي، من حيث الصلاحية، وأما تقدير الصناعة فلم يَعْنه، و«مَا» يجوز أن تكون مصدرية وبمعنى «الذي» أي فاستمع للوحي أو للذي يوحى». انتهى. الدر المصون.

نسيانها من قوله ـ عليه السلام ـ: «مَنْ نَامَ عَنْ صَلاَةٍ أَوْ نَسِيَهَا فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا» (٩٤٩)، وكان حق العبارة أن يقال: لذكرها، كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إِذَا ذَكَرَهَا» ح، ومن يتمحل له يقول: إذا ذكر الصلاة فقد ذكر الله، أو بتقدير حذف المضاف، أي: لذكر صلاتي، أو لأن الذكر والنسيان من الله ـ عز وجل ـ في الحقيقة، وقرأ رسول الله ـ ﷺ ـ: «للذكرى».

---

٩٤٩ ـ أخرجه البخاري (٢/ ٧٠) كتاب المواقيت: باب من نسي صلاة... (٥٩٧)، ومسلم (١/ ٤٧٧) كتاب المساجد: باب قضاء الصلاة الفائتة (٣١٤/ ٦٨٤)، وأبو داود (١/ ١٧٤) كتاب الصلاة: باب من نام عن صلاة أو نسيها (٤٤٢)، والترمذي (١/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦) كتاب الصلاة: باب ما جاء في الرجل ينسى الصلاة (١٧٨)، والنسائي (١/ ٢٩٣) كتاب المواقيت: باب فيمن نسي الصلاة (٦١٣)، وابن ماجه (١/ ٢٢٧) كتاب الصلاة: باب من نام عن الصلاة أو نسيها (٦٩٥ ـ ٦٩٦)، والدارمي (١/ ٢٨٠) كتاب الصلاة: باب من نام عن صلاة أو نسيها، وأبو عوانة (٢/ ٢٦٠ ـ ٢٦١)، وابن أبي شيبة (١/ ١٨٩)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢/ ٢٣٠)، وأحمد (٣/ ٢١٦ ـ ٢٤٣ ـ ٢٦٧ ـ ٢٨٢)، والبيهقي (٢/ ٢١٨)، وابن خزيمة (٢/ ٩٧) رقم (٩٩٣). من طرق عن قتادة عن أنس مرفوعاً.

ولفظ مسلم: «من نسي صلاة أو نام عنها، فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها» ولفظ البخاري: «من نسي صلاة فليصل إذا ذكر لا كفارة لها إلا ذلك» وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وللحديث شاهد من حديث أبي هريرة.

أخرجه مسلم (١/ ٤٧١) كتاب المساجد: باب قضاء الصلاة الفائتة (٣٠٩/ ٦٨٠)، وأبو داود (١/ ١٧٢) كتاب الصلاة: باب من نام عن صلاة أو نسيها (٤٣٥)، والنسائي (١/ ٢٩٦)، كتاب المواقيت) باب إعادة من نام عن الصلاة لوقتها من الغد، وابن ماجه (١/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨) كتاب الصلاة: باب من نام عن الصلاة أو نسيها (٦٩٧)، وأبو عوانة (٢/ ٢٥٣)، والبيهقي (٢/ ٢١٧) من طرق عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عنه قال قال رسول الله ﷺ: «من نسي الصلاة فليصلها إذا ذكرها فإن الله تعالى قال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ وللحديث شاهد آخر من حديث سمرة.

أخرجه أحمد (٥/ ٢٢) من طريق بشر بن حرب عن سمرة قال: بشر أحسبه مرفوعاً: «من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها»، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٣٢٦) وقال: وبشر بن حرب ضعفه ابن المديني وجماعة ووثقه ابن عدي وقال لم أر له حديثاً منكراً ا.هـ وقال الحافظ في «التقريب» (١/ ٩٨): بشر بن حرب الأزدي أبو عمرو الندبي: صدوق فيه لين.

وفي الباب أيضاً عن أبي بكرة.

أخرجه البزار (١/ ١٩٩ ـ كشف) رقم (٣٩٤) من طريق إسماعيل بن علية عن عيينة عن أبيه عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من نسي صلاة أو نام عنها فليصلها إذا ذكرها».

قال البزار: لا نعلمه عن أبي بكرة إلا من هذا الوجه ولم يحدث به عن ابن علية إلا أحمد بن المقدام.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٣٢٧) وقال: رواه البزار ورجاله موثقون.

قال الحافظ: متفق عليه من حديث أبي هريرة في قصة النوم عن الصلاة. وفي آخره: من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها؛ فإن الله تعالى قال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾، وفي رواية: (للذكرى) وهو أيضاً متفق عليه من حديث أنس مرفوعاً بلفظ: «من نسي صلاة أو نام عنها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها» زاد البخاري في رواية: «أقم الصلاة لذكري». انتهى.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾

أي: أكاد أخفيها فلا أقول هي آتية[1]؛ لفرط إرادتي إخفاءها، ولولا ما في الإخبار بإتيانها مع تعمية وقتها من اللطف لما أخبرت به، وقيل: معناه: أكاد أخفيها من نفسي، ولا دليل في الكلام على هذا المحذوف، ومحذوف لا دليل عليه مطرح، والذي غرهم منه أن في مصحف أبي: «أكاد أخفيها من نفسي»، وفي بعض المصاحف: «أكاد أخفيها من نفسي فكيف أظهركم عليها»، وعن أبي الدرداء وسعيد بن جبير: «أَخفيها»: بالفتح: من خفاه إذا أظهره، أي: قرب إظهارها؛ كقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]، وقد جاء في بعض اللغات: «أخفاه»: بمعنى خفاه؛ وبه فسر بيت امرئ القيس [من المتقارب]:

فَـإِنْ تَـدْفِـنُـوا الـدَّاءَ لاَ نُـخْـفِـهِ ... وَإِنْ تَـبْـعَـثُـوا الْـحَـرْبَ لاَ نَـقْـعُـدِ[2]

فأكاد أخفيها محتمل للمعنيين، ﴿لِتُجْزَىٰ﴾: متعلق بآتية، ﴿بِمَا تَسْعَىٰ﴾: بسعيها.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾

أي: لا يصدنك عن تصديقها، والضمير: للقيامة، ويجوز أن يكون للصلاة.

فإن قلت: العبارة لنهي من لا يؤمن عن صدّ موسى، والمقصود نهي موسى عن التكذيب بالبعث أو أمره بالتصديق، فكيف صلحت هذه العبارة لأداء هذا المقصود؟

قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أن صد الكافر عن التصديق بها سبب للتكذيب، فذكر السبب ليدل على المسبب.

والثاني: أن صد الكافر مسبب عن رخاوة الرجل في الدين ولين شكيمته، فذكر

---

(١) قال محمود: «معناه قاربت ألاّ أقول: هي آتية... إلخ» قال أحمد: ولا يقنع في رد هذا التأويل بالهوينا، فإنه بين الفساد، وذلك أن خفاءها عن الله تعالى محال عقلاً، فكيف يوصف المحال العقلي بقرب الوقوع. وأحسن ما في محامل الآية ما ذكره الأستاذ أبو علي حيث قال: المراد أكاد أزيل خفاءها، أي: أظهرها، إذ الخفاء الغطاء، وهو أيضاً ما تجعله المرأة فوق ثيابها يسترها، ثم تقول العرب: أخفيته. إذا أزلت خفاءه، كما تقول أشكيته وأعتبته، إذا أزلت شكايته وعتبه، وحينئذ يلتئم القراءتان: أعني فتح الهمزة وضمها، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(٢) يقال: خفاه، إذا كتمه. وخفاه أيضاً: أظهره، وما هنا منه. والمعنى: إن تكتموا الضغائن التي بيننا نكتمها نحن أيضاً ولا نظهرها. شبه الضغينة والعداوة بالداء بجامع نشأة الضرر عن كل على طريق التصريحية. وشبه الحرب بحيوان على طريق المكنية، والبعث تخييل. أو استعمل البعث في التسبب مجازاً مرسلاً أو استعارة تصريحية. والمعنى: وإن تظهروا البغضاء وتوقدوا الهيجاء نغلبكم كما تعلمون منا.
ينظر: ديوانه ص (١٨٦)، ولسان العرب (خفا)، وتاج العروس (خفي)، وتهذيب اللغة (٧/ ٥٩٥).

المسبب ليدل على السبب؛ كقولهم: لا أرينك ههنا، المراد: نهيه عن مشاهدته والكون بحضرته؛ وذلك سبب رؤيته إياه، فكان ذكر المسبب دليلاً على السبب، كأنه قيل: فكن شديد الشكيمة صليب المعجم[(١)]، حتى لا يتلوح منك لمن يكفر بالبعث أنه يطمع في صدك عما أنت عليه، يعني: أن من لا يؤمن بالآخرة هم الجم الغفير؛ إذ لا شيء أطم على الكفرة، ولا هم أشد له نكيراً من البعث، فلا يهولنك وفور دهمائهم ولا عظم سوادهم، ولا تجعل الكثرة مزلة قدمك، واعلم أنهم وإن كثروا تلك الكثرة، فقدوتهم فيما هم فيه هو الهوى واتباعه، لا البرهان وتدبره، وفي هذا حث عظيم على العمل بالدليل، وزجر بليغ عن التقليد، وإنذار بأن الهلاك والردى مع التقليد وأهله.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾؛ كقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢]، في انتصاب الحال، بمعنى: الإشارة، ويجوز أن تكون: ﴿تِلْكَ﴾: اسماً موصولاً صلته ﴿بِيَمِينِكَ﴾؛ إنما سأله ليريه عظم ما يخترعه ـ عز وعلا ـ في الخشبة اليابسة من قلبها حية نضناضة[(٢)]، وليقرر في نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه، وينبهه على قدرته الباهرة؛ ونظيره أن يريك الزرّاد زبرة من حديد ويقول لك: ما هي؟ فتقول: زبرة حديد، ثم يريك بعد أيام لبوساً مسرداً فيقول لك: هي تلك الزبرة صيرتها إلى ما ترى من عجيب الصنعة وأنيق السرد، قرأ ابن أبي إسحاق: «عصيّ»: على لغة هذيل؛ ومثله: ﴿يَٰبُشْرَىٰ﴾ [يوسف: ١٩]، أرادوا كسر ما قبل ياء المتكلم فلم يقدروا عليه، فقلبوا الألف إلى أخت الكسرة، وقرأ الحسن: عصاي: بكسر الياء؛ لالتقاء الساكنين، وهو مثل قراءة حمزة: ﴿بِمُصْرِخِيَّ﴾ [إبراهيم: ٢٢] وعن ابن أبي إسحاق: سكون الياء، ﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾: أعتمد عليها إذا أعييت أو وقفت على رأس القطيع وعند الطفرة[(٣)]، هش الورق: خبطه، أي: أخبطه على رءوس غنمي تأكله، وعن لقمان بن عاد ٢/ ١١ب: أكلت حقًّا وابن لبون وجذع، وهشة نخب وسيلاً دفع، والحمد لله من غير شبع، سمعته من غير واحد من العرب، ونخب: واد قريب من الطائف كثير السدر، وفي قراءة النخعي: «أهش»، وكلاهما من هش الخبز يهش: إذا كان ينكسر لهشاشته، وعن عكرمة: أهس بالسين، أي:

---

(١) قوله «صليب المعجم» في الصحاح عجمت العود: إذا عضضته لتعلم صلابته من خوره. ورجل صلب المعجم: إذا كان عزيز النفس. (ع)
(٢) قوله «حية نضناضة» أي تحرك لسانها في فمها. أفاده الصحاح. (ع)
(٣) قوله «الطفرة» أي الوثبة. (ع)

أنحى عليها زاجراً لها، والهس: زجر الغنم، ذكر على التفصيل والإجمال المنافع المتعلقة بالعصا، كأنه أحس بما يعقب هذا السؤال من أمر عظيم يحدثه الله تعالى فقال: ما هي إلا عصا لا تنفع إلا منافع بنات جنسها وكما تنفع العيدان؛ ليكون جوابه مطابقاً للغرض الذي فهمه من فحوى كلام ربه، ويجوز أن يريد ـ عزّ وجل ـ أن يعدّد المرافق الكثيرة التي علقها بالعصا ويستكثرها ويستعظمها، ثم يريه على عقب ذلك الآية العظيمة، كأنه يقول له: أين أنت عن هذه المنفعة العظمى، والمأربة الكبرى، المنسية عندها كل منفعة ومأربة كنت تعتدّ بها وتحتفل بشأنها، وقالوا: إنما سأله ليبسط منه ويقلل هيبته، وقالوا: إنما أجمل موسى ليسأله عن تلك المآرب فيزيد في إكرامه، وقالوا: انقطع لسانه بالهيبة فأجمل، وقالوا: اسم العصا نبعة، وقيل في المآرب: كانت ذات شعبتين ومحجن، فإذا طال الغصن حناه بالمحجن، وإذا طلب كسره لواه بالشعبتين، وإذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته من القوس والكنانة والحلاب وغيرها، وإذا كان في البرية ركزها وعرض الزندين[1] على شعبتيها وألقى عليها الكساء واستظلّ، وإذا قصر رشاؤه وصله بها، وكان يقاتل بها السباع عن غنمه، وقيل: كان فيها من المعجزات أنه كان يستقي بها فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلواً، وتكونان شمعتين بالليل، وإذا ظهر عدوّ حاربت عنه، وإذا اشتهى ثمرة ركزها فأورقت وأثمرت، وكان يحمل عليها زاده وسقاءه فجعلت تماشيه، ويركزها فينبع الماء، فإذا رفعها نضب، وكانت تقيه الهوام.

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾

السعي: المشي بسرعة وخفة حركة.

فإن قلت: كيف ذكرت بألفاظ مختلفة: بالحية، والجان، والثعبان؟

قلت: أمّا الحية: فاسم جنس، يقع على الذكر والأنثى والصغير والكبير، وأمّا الثعبان والجان: فبينهما تناف؛ لأن الثعبان العظيم من الحيات، والجان الدقيق، وفي ذلك وجهان:

أحدهما: أنها كانت وقت انقلابها حية تنقلب حية صفراء دقيقة، ثم تتورّم ويتزايد جرمها حتى تصير ثعباناً، فأريد بالجان أوّل حالها، وبالثعبان مآلها.

الثاني: أنها كانت في شخص الثعبان وسرعة حركة الجان؛ والدليل عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [النمل: ١٠]، وقيل: كان لها عرف كعرف الفرس، وقيل: كان بين لحييها أربعون ذراعاً.

---

(١) قوله: «عرض الزندين» في الصحاح «الزند» العود الذي يقدح به النار وهو الأعلى والزند السفلى فيها ثقب وهي الأنثى فإذا اجتمعا قيل: زندان ولم يقل زندتان، والجمع زناد وأزند وأزناد. (ع)

لما رأى ذلك الأمر العجيب الهائل، ملكه من الفزع والنفاز ما يملك البشر عند الأهوال والمخاوف، وعن ابن عباس: انقلبت ثعباناً ذكراً يبتلع الصخر والشجر، فلما رآه يبتلع كل شيء خاف ونفر، وعن بعضهم: إنما خافها؛ لأنه عرف ما لقي آدم منها، وقيل: لما قال له ربه: ﴿وَلَا تَخَفْ﴾: بلغ من ذهاب خوفه وطمأنينة نفسه أن أدخل يده في فمها وأخذ بلحيها، السيرة من السير: كالركبة من الركوب، يقال: سار فلان سيرة حسنة، ثم اتسع فيها فنقلت إلى معنى المذهب والطريقة، وقيل: سير الأولين، فيجوز أن ينتصب على الظرف، أي: سنعيدها في طريقتها الأولى، أي: في حال ما كانت عصا، وأن يكون «أعاد»: منقولاً من «عاده»، بمعنى: عاد إليه، ومنه بيت زهير [من الوافر]:

. . . . وَعَـادَكَ أَنْ تُـلَاقِـيَـهَـا عِـدَاءُ[1]

فيتعدى إلى مفعولين، ووجه ثالث حسن: وهو أن يكون: ﴿سَنُعِيدُهَا﴾: مستقلا بنفسه غير متعلق بسيرتها، بمعنى: أنها أنشئت أوّل ما أنشئت عصا، ثم ذهبت وبطلت بالقلب حية، فسنعيدها بعد ذهابها كما أنشأناها أوّلاً، ونصب سيرتها بفعل مضمر، أي: تسير سيرتها الأولى، يعني: سنعيدها سائرة سيرتها الأولى؛ حيث كنت تتوكأ عليها ولك فيها المآرب التي عرفتها.

---

(١) فصرم حبلها إذ صرمته وعادك أن تلاقيها عداء

لزهير. أي: اقطع مودتها حيث قطعت مودتك، شبه المودة بالحبل على طريق الاستعارة التصريحية، والتصريم ترشيح وتقوية للتشبيه. وعادك: يحتمل أنه من عاد إذا رجع، فالمعنى: رجعك وردك، يحتمل أنه مقلوب من عداه إذا صرفه، كما في «ناء» مقلوب «نأى» فالمعنى صرفك. قال أبو عمير: وعادك بمعنى شغلك. وقال الأصمعي: بمعنى عاد إليك، وبمعنى صرفك. ومن المعلوم أن الفعل إذا كان لازماً تعدى بالهمزة إلى المفعول قياساً، وإذا تعدى بنفسه إلى مفعول واحد تعدى بدخول الهمزة عليه إلى مفعولين. واختلف هل هو قياس أو سماعي؟ وأعاد منه، فيجري فيه ما ذكر، وأما تعديته إلى أن تلاقيها أيضاً فهو بإسقاط الخافض توسعا. والعداء: الشغل أو البعد، ويطلق على الجور. من عدا عليه. قال الجوهري: العداء ـ بالفتح ـ الظلم، ويجوز كسره بمعنى المانع، لأن العداء هو ما يعدى به أي يصرف به. كاللواذ لما يلاذ به. والرباط لما يربط به. والمعنى: اقطع مودتها حيث قطعت مودتك. وصرفك عن ملاقاتها صارف عظيم، ونسبة الصرف إليه مجاز عقلي من قبيل الإسناد إلى السبب أو الآلة. ويحتمل أن أصله «عدا» بالكسر والقصر جمع عدو. فمد للضرورة، أي: منعك الأعداء عن لقائها فالإسناد حقيقي.

في ديوانه ص ٦٢، ولسان العرب (عدا)، وكتاب العين ٨/ ٢٥١، والمخصص ١٦/ ٢٢، وكتاب الجيم ٢/ ٣٣٧، وتهذيب اللغة ٣/ ١١٣، ومقاييس اللغة ٤/ ٢٥٠.

﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ﴿٢٣﴾﴾

قيل لكل ناحيتين: جناحان، كجناحي العسكر لمجنبتيه، وجناحا الإنسان: جنباه، والأصل المستعار منه جناحا الطائر، سميا جناحين، لأنه يجنحهما عند الطيران، والمراد: إلى جنبك تحت العضد؛ دل على ذلك قوله: ﴿تَخۡرُجۡ﴾، السوء: الرداءة والقبح في كل شيء، فكنى به عن البرص كما كنى عن العورة بالسوأة، وكان جذيمة صاحب الزباء[1] أبرص فكنوا عنه بالأبرش[2]، والبرص: أبغض شيء إلى العرب، وبهم عنه نفرة عظيمة، وأسماعهم لاسمه مجاجة، فكان جديراً بأن يكنى عنه، ولا نرى أحسن ولا ألطف ولا أحز للمفاصل من كنايات القرآن وآدابه، يروى أنه كان آدم أخرج يده من مدرعته بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس يعشى البصر، ﴿بَيۡضَآءَ﴾، و﴿ءَايَةً﴾: حالان معاً، و﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾: «من» صلة لبيضاء، كما تقول: ابيضت من غير سوء، وفي نصب: (آية): وجه آخر، وهو: أن يكون بإضمار نحو: خذ، ودونك، وما أشبه ذلك؛ حذف لدلالة الكلام، وقد تعلق بهذا المحذوف، ﴿لِنُرِيَكَ﴾ ١٢/٢ أي: خذ هذه الآية ـ أيضاً ـ بعد قلب العصا حية لنريك بهاتين الآيتين بعض آياتنا الكبرى، أو لنريك بهما الكبرى من آياتنا، أو لنريك من آياتنا الكبرى فعلنا ذلك.

﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرًا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾

لما أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغي ـ لعنه الله ـ عرف أنه كلف أمراً عظيماً، وخطباً جسيماً يحتاج معه إلى احتمال ما لا يحتمله إلا ذو جأش[3] رابط وصدر فسيح، فاستوهب ربه أن يشرح صدره ويفسح قلبه، ويجعله حليماً حمولاً، يستقبل ما عسى يرد عليه من الشدائد التي يذهب معها صبر الصابر بجميل الصبر وحسن الثبات، وأن يسهل عليه في

---

(١) قوله: «وكان جذيمة صاحب الزباء، جذيمة ملك الحيرة والزباء ملكة الجزيرة كذا في الصحاح. (ع)

(٢) قوله: «فكنوا عنه بالأبرش» في الصحاح البرش في الفرس فقط صغار تخالف سائر لونه والفرس أبرش. (ع)

(٣) قوله: «ذو جأش» في الصحاح يقال: فلان رابط الجأش أي يربط نفسه عن الفرار لشجاعته. (ع)

الجملة أمره الذي هو خلافة الله في أرضه وما يصحبها من مزاولة معاظم الشئون ومقاساة جلائل الخطوب.

فإن قلت: (لي) في قوله: ﴿ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾﴾، ما جدواه[1] والكلام بدونه مستتب[2]؟

قلت: قد أبهم الكلام أولاً، فقيل: اشرح لي ويسر لي، فعلم أن ثم مشروحاً وميسراً، ثم بين ورفع الإبهام بذكرهما، فكان آكد لطلب الشرح والتيسير لصدره وأمره، من أن يقول: اشرح صدري، ويسر أمرى على الإيضاح الساذج؛ لأنه تكرير للمعنى الواحد من طريقي الإجمال والتفصيل، عن ابن عباس: كان في لسانه رتة[3] لما روى من حديث الجمرة (٩٥٠)، ويروى أن يده احترقت، وأن فرعون اجتهد في علاجها فلم تبرأ،

---

٩٥٠ ـ قال الزيلعي (٢/ ٣٥١): غريب عن ابن عباس.
وقال الحافظ: لم أره هكذا وإنما وقع في حديث الفتون الطويل الذي أخرجه النسائي وغيره».
وحديث الفتون هذا أخرجه النسائي في التفسير (٢/ ٤١) (٣٤٦) وفيه: «قالت: أجعل بيني وبينك أمراً يعرف فيه الحق، ائت بجمرتين ولؤلؤتين فقربهن إليه، فإن بطش باللؤلؤ واجتنب الجمرتين عرفت أنه يعقل، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين علمت أن أحداً لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين، وهو يعقل، فقرب ذلك إليه فتناول الجمرتين فنزعوهما منه مخافة أن يحرق يديه... الحديث بطوله».
وأخرجه أبو يعلى في مسنده (٥/ ١٠ ـ ٢٩) رقم (٢٦١٨) وابن جرير (٨/ ٤١٥ ـ ٤١٧) رقم (٢٤١٣١). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٣٠)، وعزاه لابن أبي عمر العدني في مسنده، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.
وروى الحاكم (٢/ ٥٧٥) في التاريخ قصة موسى وفرعون عن وهب بن منبه وفيه: «إن شئت اجعل في هذا الطشت جمرة وذهباً، فانظر على أيهما يقبض، فأمر فرعون بذلك، فلما مد موسى يده ليقبض على الذهب قبض الملك الموكل به على يده فردها إلى الجمرة، فقبض عليها موسى فألقاها =

---

(١) قال محمود: «إن قلت: ما فائدة لي والكلام مستتب بدونها... إلخ» قال أحمد: ويحتمل عندي والله أعلم أن تكون فائدتها الاعتراف بأن منفعة شرح الصدر راجعة إليه وعائدة عليه؛ فإن الله عز وجل لا ينتفع بإرساله ولا يستعين بشرح صدره، تعالى وتقدس، على خلاف رسول الملك إذا طلب منه أن يريح عليه فإنما يطلب منه ما يعود نفعه على مرسله، ويحصل له غرضه من رسالته، والله أعلم.

(٢) قوله: «مستتب» في الصحاح: استتب الأمر تهيأ واستقام. (ع)

(٣) قوله: «كان في لسانه رتة» في الصحاح «الرتة» بالضم: العجمة في الكلام. وحديث الجمرة: أن موسى كان يلعب بين يدي فرعون وبيده قضيب، فضرب به رأسه، فغضب وهمّ بقتله، فقالت له امرأته. إنه صبي لا يعقل وجربه إن شئت، فجاءت بطشتين في أحدهما جمر وفي الآخر جوهر، فمد موسى يده إلى الجوهر، فحولها جبريل إلى الجمر فوضع جمرة في فمه فاحترق لسانه. (ع)

ولما دعاه قال: إلى أي رب تدعوني؟ قال: إلى الذي أبرأ يدي وقد عجزت عنها، وعن بعضهم: إنما لم تبرأ يده؛ لئلا يدخلها مع فرعون في قصعة واحدة فتنعقد بينهما حرمة المواكلة، واختلف في زوال العقدة بكمالها، فقيل: ذهب بعضها وبقي بعضها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢]، وكان في لسان الحسين بن علي ـ رضي الله عنهما ـ رتة، فقال رسول الله ﷺ: ورثها من عمه موسى (٩٥١)، وقيل: زالت بكمالها؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦]، وفي تنكير العقدة ـ وإن لم يقل عقدة لساني ـ: أنه طلب حل بعضها؛ إرادة أن يفهم عنه فهما جيداً، ولم يطلب الفصاحة الكاملة، و﴿مِّن لِّسَانِي﴾: صفة للعقدة، كأنه قيل: عقدة من عقد لساني.

الوزير: من الوزر؛ لأنه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنه، أو من الوزر[1]؛ لأن الملك يعتصم برأيه ويلجىء إليه أموره، أو من المؤازره وهي المعاونة، عن الأصمعي قال: وكان القياس أزيرا، فقلبت الهمزة إلى الواو، ووجه قلبها أنّ فعيلاً جاء في معنى: مفاعل مجيئاً صالحاً؛ كقولهم: عشير، وجليس، وقعيد، وخليل، وصديق، ونديم، فلما قلبت في أخيه قلبت فيه، وحمل الشيء على نظيره ليس بعزيز، ونظراً إلى يوازر وأخواته، وإلى الموازرة، ﴿وَزِيرًا﴾، و﴿هَٰرُونَ﴾: مفعولا قوله: ﴿وَٱجْعَل﴾، قدم ثانيهما على أولهما؛ عناية بأمر الوزارة، أو ﴿لِّي وَزِيرًا﴾: مفعولاه، وهارون عطف بيان للوزير، و﴿أَخِى﴾: في الوجهين بدل من هارون، وإن جعل عطف بيان آخر جاز وحسن[2]، قرءوا جميعاً:

= في فيه ثم قذفها حين وجد حرارتها، فقالت آسية لفرعون: ألم أقل لك إنه لا يعقل شيئاً ولا يعلمه، وكف عنه فرعون وصدقها وكان أمر بقتله».

قال الحافظ: لم أره هكذا، وإنما وقع في حديث القنوت الطويل الذي أخرجه النسائي وغيره من طريق القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبير: «سألت ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن قوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ ـ فذكره بطوله في أربع ورقات ـ فذكر فيه قصة آسية وفرعون. وقولها: قرب إليه جمرتين ولؤلؤتين، وأنه أخذ الجمرتين فانتزعتهما منه مخافة أن يحرقا يده، وهذا يدل على أنه لم يرفعهما إلى فيه. وهو أصح ما ورد في ذلك. وروى الحاكم من طريق وهب بن منبه فذكر قصة وفيها قالت: جربه. إن شئت اجعل في هذا جمرة وذهباً فانظر أيهما يقبض. قال: فأخذ الجمرة وألقاها في فيه ثم قذفها حين وجد حرارتها» ويقال: إن العقدة التي كانت في لسان موسى من أثر تلك الجمرة التي التقمها. انتهى.

٩٥١ ـ قال الحافظ: لم أجده. انتهى.

وقال الزيلعي (١/ ٣٥٢): «غريب جداً».

---

(١) قوله «الوزير من الوزر» أي الثقل. وقوله «أو من الوزر» أي الملجأ. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: ويبعد فيه عطف البيان؛ لأن عطف البيان الأكثر فيه أن يكون =

﴿أَشْدُدْ﴾، ﴿وَأَشْرِكْهُ﴾: على الدعاء، وابن عامر وحده: «اشدُد»، و«أُشركه»: على الجواب، وفي مصحف ابن مسعود: «أخي واشدد»، وعن أبي بن كعب: «أشركه في أمري»، «واشدد به أزري»، ويجوز فيمن قرأ على لفظ الأمر: أن يجعل: (أخي) مرفوعاً على الابتداء، و(اشدد به): خبره، ويوقف على: (هارون)، الأزر: القوة، وأزره: قواه، أي: اجعله شريكي في الرسالة حتى نتعاون على عبادتك وذكرك، فإن التعاون ـ لأنه مهيج الرغبات ـ يتزايد به الخير ويتكاثر، ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ أي: عالماً بأحوالنا وبأن التعاضد مما يصلحنا، وأن هارون نعم المعين والشادّ لعضدي، بأنه أكبر مني سنًا وأفصح لساناً.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾

السؤل: الطلبة، فعل بمعنى: مفعول؛ كقولك: خبز، بمعنى: مخبوز، وأكل، بمعنى: مأكول.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾

الوحي إلى أم موسى: إما أن يكون على لسان نبيّ في وقتها؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ [المائدة: ١١١]، أو يبعث إليها ملكاً لا على وجه النبوة، كما بعث إلى مريم، أو يريها ذلك في المنام فتتنبه عليه، أو يلهمها؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، أي: أوحينا إليها أمراً لا سبيل إلى التوصل إليه ولا إلى العلم به إلا بالوحي، وفيه مصلحة دينية فوجب أن يوحى ولا يخل به، أي: هو مما يوحى لا محالة وهو أمر عظيم، مثله يحق بأن يوحى (أن): هي المفسرة؛ لأن الوحي بمعنى: القول، القذف

= الأول دونه في الشهرة وهذا بالعكس، قلت: لم يرد الزمخشري أن أخي عطف بيان لهارون حتى يقول الشيخ إن الأول وهو هارون أشهر من الثاني وهو أخي إنما عنى الزمخشري أنه عطف بيان أيضاً لـ ﴿وَزِيرًا﴾ ولذلك قال أخي ولا بد من الإتيان بلفظه ليُعرف أنه لم يرد إلا ما ذكرته قال: وزيراً هارون مفعولاً قوله: «اجعل» أو: لي وزيراً مفعولاً، وهارون عطف بيان لوزير، وأخي في الوجهين بدل من هارون، وإن جعل عطف بيان آخر جاز وحسن، فقوله آخر تعيّن أن يكون عطف بيان لما جعل عنه عطف بيان قبل ذلك وجوّز الزمحشري في أخي أن يرتفع بالابتداء، ويكون خبره الجملة من قوله: «اشدد به» وذلك على قراءة الجمهور له بصفة الدعاء، وعلى هذا فالوقف على هارون وقرأ ابن عامر اشْدُدْ» بفتح الهمزة للمضارعة وجزم الفعل جواباً للأمر و«أُشرِكه» بضم الهمزة للمضارعة وجزم الفعل نسقاً على ما قبله. انتهى. الدر المصون.

مستعمل في معنى الإلقاء والوضع؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الحشر: ٢]، وكذلك الرمي؛ قال [من الطويل]:

غُلاَمٌ رَمَاهُ اللَّهُ بِالْحُسْنِ يَافِعاً . . . . (١)

أي: حصل فيه الحسن ووضعه فيه، والضمائر كلها راجعة إلى موسى، ورجوع بعضها إليه وبعضها إلى التابوت: فيه هجنة؛ ٢/١٢ب لما يؤدي إليه من تنافر النظم.

فإن قلت: المقذوف في البحر هو التابوت، وكذلك الملقى إلى الساحل.

قلت: ما ضرك لو قلت: المقذوف والملقى هو موسى في جوف التابوت؛ حتى لا تفرق الضمائر فيتنافر عليك النظم الذي هو أم إعجاز القرآن، والقانون الذي وقع عليه التحدّي، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر؛ لما كانت مشيئة الله تعالى وإرادته ألاَّ تخطئ جرية ماء اليم الوصول به إلى الساحل وألقاه إليه، سلك في ذلك سبيل المجاز، وجعل اليم كأنه ذو تمييز، أمر بذلك ليطيع الأمر يمتثل رسمه، فقيل: ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ

---

(١) رآني على ما بي عميلة فاشتكى ... إلى ماله حالي فواسى وما هجر
ولما رأى المجد استعيرت ثيابه ... تردى رداء سابغ الذيل واتزر
غلام رماه الله بالحسن يافعاً ... له سيمياء لا تشق على البصر
كأن الثريا علقت فوق نحره ... وفي أنفه الشعرا وفي خده القمر

لأسيد بن عنقاء الفزاري، كان من أكبر أهل زمانه وأعلمهم بالأدب، فطال به عمره ونكبه دهره، فلقيه عميلة الفزاري فسلم عليه وقال: ما أصارك يا عم إلى ما أرى؟ فقال: بخل مثلك بماله، وصون وجهي عن مسألة الناس. فقال: لئن بقيت إلى غد لأغيرن ما بك، فلما كان وقت السحر سمع رغاء الإبل وصهيل الخيل تحت الأموال. فقال: ما هذا؟ قالوا: عميلة شطر ماله بينك وبينه، فأنشأ يقول ذلك. وشبه ماله بعاقر على طريق المكنية. والشكوى إليه تخييل. وضمير واسى، بمعنى: أعطى لعميلة. ويجوز أنه للمال، بناء على التشبيه السابق. وثياب المجد مجاز عن المكارم والإحسان على طريق التصريح، واستعارتها ترشيح. ومعناه أخذها من أربابها وذهابها من أصحابها، وذلك كله كناية عن بخل ذوي الأموال. وسابغ الذيل: طويله. واتزر: لبس الإزار. ويقرأ بتشديد التاء. ويجوز فتحها مع همزة ساكنة قبلها على الأصل والمجاز كما تقدم. وذلك كناية عن كثرة جوده، ويجوز أن المعنى لما رأى الناس تفتخر بمفاخر غيرهم فقط صنع هو المكارم بنفسه لنفسه، ورماه الله بالحسن: وضعه فيه بكثرة، كأنه قذفه فيه بغير حساب. واليافع: الشاب وهو حال. والسيمياء: العلامة لا تشق على البصر كناية عن ظهورها فلا تحتاج إلى تأمل، كظهور الكواكب. والنحر: أعلى الصدر وأسفل العنق. والشعرا: نجم كثير الضوء. والبيت الثاني بيان للأول. وروي «حباه الله» وروي «علقت في جبينه» وروي: «وفي جيده القمر» وحباه: أعطاه. والجيد: العنق، وهذه الرواية أقعد.

ينظر البيت في لسان العرب (سوم) وتاج العروس (سوم)، وبلا نسبة في لسان العرب (سوم)، وتهذيب اللغة ١٣/١١٢، والمخصص ١٦/١٦.

بِٱلسَّاحِلِ﴾، روي أنها جعلت في التابوت قطناً محلوجاً، فوضعته فيه وجصصته وقيرته، ثم ألقته في اليم، وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر كبير، فبينا هو جالس على رأس بركة مع آسية إذا بالتابوت، فأمر به فأخرج ففتح، فإذا صبي أصبح الناس وجهاً، فأحبه عدوّ الله حبًا شديداً لا يتمالك أن يصبر عنه، وظاهر اللفظ أنّ البحر ألقاه بساحله وهو شاطئه؛ لأنّ الماء يسحله، أي: يقشره، وقذف به ثمة فالتقط من الساحل، إلا أن يكون قد ألقاه اليم بموضع من الساحل فيه فوهة نهر فرعون، ثم أداه النهر إلى حيث البركة، ﴿مِّنِّى﴾: لا يخلو إما أن يتعلق بألقيت، فيكون المعنى على: أني أحببتك ومن أحبه الله أحبته القلوب، وإما أن يتعلق بمحذوف هو صفة لمحبة، أي: محبة حاصلة أو واقعة مني، قد ركزتها أنا في القلوب وزرعتها فيها؛ فلذلك أحبك فرعونه وكل من أبصرك، روي أنه كانت على وجهه مسحة جمال، وفي عينيه ملاحة، لا يكاد يصبر عنه من رآه، ﴿عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾: لتربي ويحسن إليك وأنا مراعيك وراقبك، كما يراعي الرجل الشيء بعينيه إذا اعتنى به، وتقول للصانع: اصنع هذا على عيني أنظر إليك لئلا تخالف به عن مرادي وبغيتي، ولتصنع: معطوف على علة مضمرة، مثل: ليتعطف عليك وترأم[١]، ونحوه، أو حذف معلله، أي: ولتصنع فعلت ذلك، وقرئ: «ولِتصنَعْ»، و«لْتصنع» بكسر اللام وسكونها، والجزم على أنه أمر، وقرئ: «ولتَصنع»: بفتح التاء والنصب، أي: وليكون عملك وتصرفك على عين مني.

﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾

العامل في ﴿إِذْ تَمْشِىٓ﴾[٢]، (ألقيت)، أو (تصنع)، ويجوز أن يكون بدلاً من: (إذ أوحينا).

فإن قلت: كيف يصح البدل والوقتان مختلفان متباعدان؟

قلت: كما يصح ـ وإن اتسع الوقت وتباعد طرفاه ـ أن يقول لك الرجل: لقيت فلانا سنة كذا، فتقول: وأنا لقيته إذ ذاك، وربما لقيه هو في أولها وأنت في آخرها، يروى أن

---

(١) قوله «وترأم» أي تحب وتؤلف. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «العامل في (إذ تمشي) ألقيت أو تصنع... إلخ» قال أحمد: والمعنى يوجب عمل (ولتصنع) فيه لأن معنى صنيعه على عين الله عز وجل: تربيته مكلوءاً بكلاءته مصوناً بحفظه، وزمان تربيته على هذه الحالة: هو زمان رده إلى أمه المشفقة الحنانة. وأما إلقاء المحبة عليه، فقيل: ذلك أول ما أخذه فرعون وأحبه. والله سبحانه وتعالى أعلم.

أخته واسمها مريم جاءت متعرفة خبره، فصادفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها؛ وذلك أنه كان لا يقبل ثدي امرأة فقالت: هل أدلكم؟ فجاءت بالأمّ، فقبل ثديها، ويروى أن آسية استوهبته من فرعون وتبنته، وهي التي أشفقت عليه وطلبت له المراضع.

هي نفس القبطي الذي استغاثه عليه الإسرائيلي، قتله وهو ابن اثنتي عشرة سنة: اغتم بسبب القتل؛ خوفاً من عقاب الله ومن اقتصاص فرعون، فغفر الله له باستغفاره حين قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [القصص: ١٦]، ونجاه من فرعون أن ينشب فيه أظفاره حين هاجر به إلى مدين، ﴿فُتُونًا﴾: يجوز أن يكون مصدراً على فعول في المتعدّي، كالثبور والشكور والكفور، وجمع فتن أو فتنة، على ترك الاعتداد بتاء التأنيث، كحجوز وبدور، في حجزة وبدرة، أي: فتناك ضروباً من الفتن، سأل سعيد بن جبير ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ فقال: خلصناك من محنة بعد محنة: ولد في عام كان يقتل فيه الولدان، فهذه فتنة يا ابن جبير، وألقته أمّه في البحر، وهمّ فرعون بقتله، وقتل قبطيًا، وأجر نفسه عشر سنين، وضلّ الطريق، وتفرّقت غنمه في ليلة مظلمة، وكان يقول عند كل واحدة: فهذه فتنة يا ابن جبير، والفتنة: المحنة، وكل ما يشق على الإنسان، وكل ما يبتلي الله به عباده: فتنة؛ قال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، ﴿خَٰلِدِينَ﴾: على ثماني مراحل من مصر، وعن وهب: أنه لبث عند شعيب ثمانياً وعشرين سنة، منها مهر ابنته، وقضى أوفى الأجلين، أي: سبق في قضائي وقدري أن أكلمك وأستنبئك، وفي وقت بعينه قد وقته لذلك، فما جئت إلا على ذلك القدر غير مستقدم ولا مستأخر، وقيل: على مقدار من الزمان يوحى فيه إلى الأنبياء، وهو رأس أربعين سنة، هذا تمثيل لما خوّله من منزلة التقريب والتكريم والتكليم، مثل حاله بحال من يراه بعض الملوك لجوامع خصال فيه وخصائص؛ أهلا لئلا يكون أحد أقرب منزلة منه إليه، ولا ألطف محلاً، فيصطنعه بالكرامة والأثرة، ويستخلصه لنفسه، ولا يبصر ولا يسمع إلا بعينه وأذنه، ولا يأتمن على مكنون سره إلا سواء ضميره[1] ٢/ ١٣أ.

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾

الونى: الفتور والتقصير، وقرئ: «تنيا»: بكسر حرف المضارعة للاتباع، أي: لا تنسياني ولا أزال منكما على ذكر حيثما تقلبتما، واتخذا ذكري جناحاً تصيران به مستمدين بذلك العون والتأييد مني، معتقدين أن أمراً من الأمور لا يتمشى لأحد إلا بذكري، ويجوز

---

(١) قوله «سواء ضميره» في الصحاح «سواء الشيء»: وسطه. (ع)

أن يريد بالذكر: تبليغ الرسالة؛ فَإنَّ الذكر يقع على سائر العبادات، وتبليغ الرسالة من أجلها وأعظمها، فكان جديراً بأن يطلق عليه اسم الذكر، روي أن الله ـ تعالى ـ أوحى إلى هارون وهو بمصر أن يتلقى موسى، وقيل: سمع بمقبله، وقيل: ألهم ذلك، قرئ: (لينا): بالتخفيف والقول اللين؛ نحو قوله تعالى: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩﴾ [النازعات: ١٨ ـ ١٩]، لأنّ ظاهره الاستفهام والمشورة، وعرض ما فيه من الفوز العظيم، وقيل: عداه شباباً لا يهرم بعده، وملكاً لا ينزع منه إلا بالموت، وأن تبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته، وقيل: لا تجبهاه بما يكره، وألطفا له في القول[(١)]؛ لما له من حق تربية موسى، ولما ثبت له من مثل حق الأبوّة، وقيل: كنياه وهو من ذوي الكنى الثلاث: أبو العباس، وأبو الوليد، وأبو مرّة، والترجي لهما، أي: اذهبا على رجائكما وطمعكما، وباشرا الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه، فهو يجتهد بطوقه، ويحتشد[(٢)] بأقصى وسعه، وجدوى إرسالهما إليه مع العلم بأنه لن يؤمن إلزام الحجة وقطع المعذرة، ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ [القصص: ٤٧]، أي: يتذكر ويتأمل فيبذل النصفة من نفسه والإذعان للحق، ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾: أن يكون الأمر كما تصفان، فيجرّه إنكاره إلى الهلكة.

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝٤٥﴾

فرط: سبق وتقدّم، ومنه الفارط: الذي يتقدّم الواردة، وفرس فرط: يسبق الخيل، أي: نخاف أن يعجل علينا بالعقوبة ويبادرنا بها، وقرئ ﴿يَفْرُطَ﴾: من أفرطه غيره إذا حمله على العجلة، خافا أن يحمله حامل على المعاجلة بالعقاب[(٣)] من شيطان، أو من جبروته واستكباره وادّعائه الربوبية، أو من حبه الرياسة، أو من قومه القبط المتمرّدين الذين حكى عنهم ربّ العزة: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦ﴾ [المؤمنون: ٣٣]، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦ﴾ [المؤمنون: ٣٣]، وقرئ: «يفرط»؛ من الإفراط في الأذية، أي: نخاف أن يحول بيننا وبين تبليغ الرسالة بالمعاجلة، أو يجاوز الحدّ في معاقبتنا إن لم يعاجل؛ بناء على ما عرفا وجرّبا من شرارته وعتوّه، ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾: بالتخطي إلى أن يقول فيك ما لا ينبغي؛ لجرأته عليك

---

(١) قوله: «وقيل: لاتجبهاه بما يكره» في الصحاح «جبهته بالمكروه» إذا استقبلته به، وفيه «اللطف في العمل» الرفق به. (ع)

(٢) قوله: «ويحتشد بأقصى وسعه» أي يستعد ويتأهب. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قال محمود: «معنى يفرط علينا يعجل بعقوبتنا... إلخ» قال أحمد: وإذا روعي في الأدب إطلاق هذه اللفظة عن مجرور بها، فلا يبعد أن يراعى في الأدب بالاعتراف بتقلد منة الله عز وجلّ زيادة المجرور في قوله ﴿ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ كما قدمته آنفاً والله أعلم.

وقسوة قبله، وفي المجيء به هكذا على الإطلاق وعلى سبيل الرمز: باب من حسن الأدب وتحاش عن التفوّه بالعظيمة.

﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾

﴿مَعَكُمَآ﴾ أي: حافظكما وناصركما، ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾: ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل، فأفعل ما يوجبه حفظي ونصرتي لكما، فجائز أن يقدّر أقوالكم وأفعالكم، وجائز ألاّ يقدّر شيء، وكأنه قيل: أنا حافظ لكما وناصر سامع مبصر، وإذا كان الحافظ والناصر كذلك، تمّ الحفظ وصحت النصرة، وذهبت المبالاة بالعدوّ، كانت بنو إسرائيل في ملكة فرعون والقبط، يعذبونهم بتكليف الأعمال الصعبة: من الحفر والبناء ونقل الحجارة، والسخرة في كل شيء، مع قتل الولدان، واستخدام النساء، ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾: جملة جارية من الجملة الأولى، وهي: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]، مجرى البيان والتفسير؛ لأنّ دعوى الرسالة لا تثبت إلا ببينتها التي هي المجيء بالآية؛ إنما وحد قوله: (بآية)، ولم يثن ومعه آيتان؛ لأنّ المراد في هذا الموضع: تثبيت الدعوى ببرهانها، فكأنه قال: قد جئناك بمعجزة وبرهان وحجة على ما ادعيناه من الرسالة؛ وكذلك ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٠٥]، ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤]، ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ٣٠]، يريد: وسلام الملائكة الذين هم خزنة الجنة على المهتدين، وتوبيخ خزنة النار والعذاب على المكذبين.

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾

خاطب الاثنين، ووجه النداء إلى أحدهما وهو موسى، لأنه الأصل في النبوة، وهارون وزيره وتابعه، ويحتمل أن يحمله خبثه ودعارته[1] على استدعاء كلام موسى دون كلام أخيه؛ لما عرف من فصاحة هارون والرتة في لسان موسى؛ ويدل عليه قوله: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف: ٥٢]، ﴿خَلْقَهُۥ﴾: أول مفعولي أعطى، أي: أعطى خليقته كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به، أو ثانيهما، أي: أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به، كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع؛ وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان: كل

(١) قوله «يحمله خبثه ودعارته» أي فساده وفسقه. (ع)

واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة، غير ناب عنه، أو أعطى كل حيوان نظيره في الخلق والصورة، حيث جعل الحصان والحجر[1] زوجين، والبعير والناقة، والرجل والمرأة، فلم يزاوج منها شيئاً غير جنسه وما هو على خلاف خلقه، وقرئ: «خلقه»: صفة للمضاف أو للمضاف إليه، أي: كل شيء خلقه الله لم يخله من عطائه وإنعامه، ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أي: عرّف كيف يرتفق بما أعطى، وكيف يتوصل ٢/١٣ب إليه، ولله درّ هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه، وما أبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الإنصاف وكان طالباً للحق.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾

سأله عن حال من تقدم وخلا من القرون، وعن شقاء من شقي منهم وسعادة من سعد، فأجابه بأنّ هذا سؤال عن الغيب، وقد استأثر الله به لا يعلمه إلا هو، وما أنا إلا عبد مثلك لا أعلم منه إلا ما أخبرني به علام الغيوب، وعلم أحوال القرون مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ، لا يجوز على الله أن يخطئ شيئاً أو ينساه، يقال: ضللت الشيء: إذا أخطأته في مكانه فلم تهتد له؛ كقولك: ضللت الطريق والمنزل، وقرئ: «يضل»: من أضله إذا ضيعه، وعن ابن عباس: لا يترك من كفر به حتى ينتقم منه، ولا يترك من وحده حتى يجازيه، ويجوز أن يكون فرعون قد نازعه في إحاطة الله بكل شيء وتبينه لكل معلوم، فتعنت وقال: ما تقول في سوالف القرون، وتمادي كثرتهم، وتباعد أطراف عددهم، كيف أحاط بهم وبأجزائهم وجواهرهم؟ فأجاب: بأنّ كل كائن محيط به علمه، وهو مثبت عنده في كتاب، ولا يجوز عليه الخطأ والنسيان، كما يجوزان عليك أيها العبد الذليل والبشر الضئيل، أي: لا يضل كما تضل أنت، ولا ينسى كما تنسى يا مدعي الربوبية بالجهل والوقاحة، ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ﴾: مرفوع صفة لربي، أو خبر مبتدأ محذوف أو منصوب على المدح؛ وهذا من مظانه ومجازه، ﴿مَهْدًا﴾: قراءة أهل الكوفة، أي: مهدها مهداً، أو يتمهدونها فهي لهم كالمهد وهو ما يمهد للصبي، ﴿وَسَلَكَ﴾: من قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ [المدثر: ٤٢]، ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾ [الشعراء: ٢٠٠]، ﴿نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الحجر: ١٢]، أي: حصل لكم فيها سبلاً ووسطها بين الجبال والأودية والبراري، ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾: انتقل فيه من لفظ الغيبة إلى لفظ المتكلم المطاع، لما ذكرت من

---

(١) قوله «والحجر» بكسر الحاء وسكون الجيم: الأنثى من الخيل. اهـ مصححه.

الافتنان[1]، والإيذان بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لأمره، وتذعن الأجناس المتفاوتة لمشيئته، لا يمتنع شيء على إرادته؛ ومثله قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩٩]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: ٢٧]، ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠]، وفيه تخصيص ـ أيضاً ـ بأنا نحن نقدر على مثل هذا، ولا يدخل تحت قدرة أحد، ﴿أَزْوَٰجًا﴾: أصنافاً؛ سميت بذلك لأنها مزدوجة ومقترنة بعضها مع بعض، ﴿شَتَّىٰ﴾: صفة للأزواج، جمع شتيت، كمريض ومرضي، ويجوز أن يكون صفة للنبات، والنبات مصدر سمي به النابت كما سمي بالنبت، فاستوى فيه الواحد والجمع، يعني: أنها شتى مختلفة النفع والطعم واللون والرائحة والشكل، بعضها يصلح للناس وبعضها للبهائم، قالوا: من نعمته ـ عز وعلا ـ أن أرزاق العباد إنما تحصل بعمل الأنعام، وقد جعل الله علفها مما يفضل عن حاجتهم ولا يقدرون على أكله، أي: قائلين ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟﴾: حال من الضمير في: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾، المعنى: أخرجنا أصناف النبات آذنين في الانتفاع بها، مبيحين أن تأكلوا بعضها وتعلفوا بعضها.

﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾

أراد بخلقهم من الأرض خلق أصلهم هو آدم ـ عليه السلام ـ منها، وقيل: إن الملك لينطلق فيأخذ من تربة المكان الذي يدفن فيه فيبدّدها على النطفة فيخلق من التراب والنطفة معاً، وأراد بإخراجهم منها أنه يؤلف أجزاءهم المتفرقة المختلطة بالتراب، ويردهم كما كانوا أحياء، ويخرجهم إلى المحشر ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: ٤٣]، عدّد الله

---

(١) قال محمود «هذا من باب الالتفات. . . . إلخ» قال أحمد: الالتفات إنما يكون في كلام المتكلم الواحد، يصرف كلامه على وجوه شتى، وما نحن فيه ليس من ذلك؛ فإن الله تعالى حكى عن موسى ـ عليه السلام ـ قوله لفرعون: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ ثم قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ إلى قوله ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ إما أن يجعل من قول موسى فيكون من باب قول خواص الملك: أمرنا وعمرنا، وإنما يريدون الملك، وليس هذا بالتفات. وإما أن يكون كلام موسى قد انتهى عند قوله: ﴿وَلَا يَنسَى﴾ ثم ابتدأ الله تعالى وصف ذاته بصفات إنعامه على خلقه، فليس التفاتاً أيضاً، وإنما هو انتقال من حكاية إلى إنشاء خطاب، وعلى هذا التأويل ينبغي للقارئ أن يقف وقيفة عند قوله: ﴿وَلَا يَنسَى﴾ ليستقر بانتهاء الحكاية. ويحتمل وجهاً آخر: وهو أن موسى وصف الله تعالى بهذه الصفات على لفظ الغيبة فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ ﴿وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجاً من نبات شتى﴾ فلما حكاه الله تعالى عنه أسند الضمير إلى ذاته؛ لأن الحاكي هو المحكي في كلام موسى، فمرجع الضميرين واحد، وهذا الوجه وجه حسن دقيق الحاشية، وهذا أقرب الوجوه إلى الالتفات، لكن الزمخشري لم يعنه، والله أعلم.

عليهم ما علق بالأرض من مرافقهم؛ حيث جعلها لهم فراشاً ومهاداً يتقلبون عليها، وسوّى لهم فيها مسالك يتردّدون فيها كيف شاءوا، وأنبت فيها أصناف النبات التي منها أقواتهم وعلوفات بهائمهم، وهي أصلهم الذي منه تفرعوا، وأمهم التي منها ولدوا، ثم هي كفاتهم إذا ماتوا[١]، ومن ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «تَمَسَّحُوا بِالأَرْضِ، فَإِنَّهَا بِكُمْ بَرَّةٌ» (٩٥٢).

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾

﴿أَرَيْنَٰهُ﴾: بصرناه أو عرفناه صحتها ويقناه بها؛ وإنما كذب لظلمه؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وفي قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾ وجهان:

أحدهما: أن يحذى بهذا التعريف الإضافي حذو التعريف باللام لو قيل الآيات كلها[٢]، أعني: أنها كانت لا تعطي إلا تعريف العهد، والإشارة إلى الآيات المعلومة التي هي تسع الآيات المختصة بموسى ـ عليه السلام ـ: العصا، واليد، وفلق البحر، والحجر، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، ونتق الجبل.

والثاني: أن يكون موسى قد أراه آياته وعدّد عليه ما أوتيه غيره من الأنبياء من آياتهم

---

٩٥٢ ـ أخرجه الطبراني في الصغير (١/١٤٨) حدثنا حملة بن محمد الغزي بمدينة غزة حدثنا عبد الله بن محمد بن عمرو الغزي حدثنا محمد بن يوسف الفريابي حدثنا سفيان عن عوف عن أبي عثمان النهدي عن سلمان الفارسي عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «تمسحوا بالأرض؛ فإنها بكم برة».
وقال لم يروه عن سفيان إلا الفريابي، ومن طريقه رواه القضاعي في مسند الشهاب (٧٠٤)، وأخرج القضاعي في مسند الشهاب وابن أبي شيبة في المصنف (١/١٤٩) كتاب الطهارات، باب ما يجزىء الرجل في تيممه حديث (١٧٠٧) عن أبي عثمان النهدي عن النبي ـ ﷺ ـ قال: بلغني أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «تمسحوا بها؛ فإنها بكم برة ـ يعني الأرض» هكذا مرسلاً.
قال الحافظ: أخرجه ابن أبي شيبة عن علية عن عوف عن ابن عثمان به مرسلاً. وأخرجه الطبراني في الصغير من رواية الفريابي عن الثوري عن عوف. وصله بذكر سلمان قال ابن طاهر: المرسل أولى بالصواب. انتهى.

---

(١) قوله «ثم هي كفاتهم إذا ماتوا» أي موضعهم الذي يضمون فيه. أفاده الصحاح. (ع)
(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وفيه بعد لأن الإخبار بالشيء لا يسمى رؤية له الإعجاز بعيد وقيل: بل الرؤية هنا رؤية قلبية وأيد ذلك بأنه لم يكن أراه إلا اليد والعصا فقط ومن جوّز استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه أو إعمال المشترك في معنييه يجيز أن يراد المعنيان جميعاً وتأكيد الآيات بكلها يدل على إرادة العموم لأنهم قالوا: فائدة التوكيد بكل وأخواتها رفع توهم وضع الأخص موضع الأعم فلا يدعي أنه أراد بالآيات آيات مخصوصة وهذا يتمشى على أن الرؤية قلبية ويراد بالآيات ما يدل على وحدانية الله وصدق المبلغ. انتهى. الدر المصون.

ومعجزاتهم، وهو نبيّ صادق، لا فرق بين ما يخبر عنه وبين ما يشاهد به، فكذبها جميعاً، ﴿وَأَبَىٰ﴾: أن يقبل شيئاً منها، وقيل: فكذب الآيات وأبى قبول الحق.

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾

يلوح من جيب قوله: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ﴾: أن فرائصه كانت ترعد خوفاً مما ٢/ ١٤٤أ جاء به موسى ـ عليه السلام ـ لعلمه وإيقانه أنه على الحق، وأن المحق لو أراد قود الجبال لانقادت وأن مثله لا يخذل ولا يقل ناصره، وأنه غالبه على ملكه لا محالة، وقوله: (بسحرك): تعلل وتحير، وإلا فكيف يخفى عليه أن ساحراً لا يقدر أن يخرج ملكاً مثله من أرضه ويغلبه على ملكه بالسحر.

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾

لا يخلو الموعد في قوله: ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ من أن يجعل زماناً أو مكاناً أو مصدراً، فإن جعلته زماناً نظراً في أن قوله تعالى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾: مطابق له، لزمك شيئان: أن تجعل الزمان مخلفاً، وأن يعضل عليك ناصب مكاناً: وإن جعلته مكاناً؛ لقوله تعالى: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ [طه: ٥٨]، لزمك[1] ـ أيضاً ـ أن توقع الإخلاف على المكان، وألاّ

---

(١) قال محمود «إن جعلت موعداً الأول اسم مكان ليطابق قوله مكاناً سوى لزمك. . . إلخ» قال أحمد: وفي إعماله وقد وصف بقوله ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ﴾ بعد، إلا أن تجعل: الجملة معترضة، فهو مع ذلك لا يخلو من بعد، من حيث أن وقوع الجملة عقيب النكرة بحيزها، الشأن أن تكون صفة، والله أعلم. ويحتمل عندي وجه آخر أخصر وأسلم: وهو أن يجعل موعداً اسم مكان فيطابق مكاناً، ويكون بدلاً منه، ويطابق الجواب بالزمان بالتقرير الذي ذكره ويبقى عود الضمير، فتقول: هو والحال هذه عائد على المصدر المفهوم من اسم المكان: لأن حروفه فيه. والموعد إذا كان اسم مكان فحاصله مكان وعد، كما إذا كان اسم زمان فحاصله زمان وعد. وإذا جاز رجوع الضمير إلى ما دلت قوة الكلام عليه وإن لم يكن منطوقاً به بوجه، فرجوعه إلى ما هو كالمنطوق به أولى. ومما يحقق ذلك أنهم قالوا: من صدق كان خيراً له. يعنون: كان الصدق خيراً له، فأعادوا الضمير على المصدر وقدروه منطوقاً به للنطق بالفعل الذي هو مشتق منه. وإذا أوضح ذلك فاسم المكان مشتق من المصدر اشتقاق الفعل منه، فالنطق به كاف في إعادة الضمير على مصدره والله أعلم. وعلى هذين التأويلين يكون جواب موسى ـ عليه السلام ـ من جوامع كلم الأنبياء؛ لأنه سئل أن يواعدهم مكاناً فعلم أنهم لا بد أن يسألوه مواعدة على زمان أيضاً، فأسلف الجواب عنه وضمنها جواباً مفرداً، ولقائل أن يقول: إن كان المسئول منه المواعدة على المكان فلم أجاب بالزمان الذي لم يسئل عنه صريحاً، وجعل جواب ما سئل عنه مضمناً. وجوابه ـ والله أعلم ـ أن يقال: اكتفى بقرينة =

يطابق قوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ [طه: ٥٩]، وقراءة الحسن غير مطابقة له مكاناً وزماناً جميعاً؛ لأنه قرأ: (يوم الزينة): بالنصب، فبقي أن يجعل مصدراً، بمعنى: الوعد، ويقدر: مضاف محذوف، أي: مكان موعد، ويجعل الضمير في (نخلفه): للموعد، و(مكانا): بدل من المكان المحذوف.

فإن قلت: فكيف طابقه قوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾، ولا بد من أن تجعله زماناً، والسؤال واقع عن المكان لا عن الزمان؟

قلت: هو مطابق معنى، وإن لم يطابق لفظاً؛ لأنهم لا بدّ لهم من أن يجتمعوا يوم الزينة في مكان بعينه، مشتهر باجتماعهم فيه في ذلك اليوم، فبذكر الزمان علم المكان، وأما قراءة الحسن: فالموعد فيها مصدر لا غير، والمعنى: إنجاز وعدكم يوم الزينة، وطباق هذا ـ أيضاً ـ من طريق المعنى، ويجوز ألاّ يقدر مضاف محذوف، ويكون المعنى: اجعل بيننا وبينك وعداً لا نخلفه.

فإن قلت: فبم ينتصب مكاناً؟

قلت: بالمصدر، أو بفعل يدل عليه المصدر.

فإن قلت: فكيف يطابقه الجواب؟

قلت: أما على قراءة الحسن فظاهر، وأما على قراءة العامة فعلى تقدير: وعدكم وعد يوم الزينة، ويجوز على قراءة الحسن أن يكون: (موعدكم): مبتدأ، بمعنى: الوقت، و(ضحى): خبره، على نية التعريف فيه؛ لأنه ضحى ذلك اليوم بعينه، وقيل: في يوم الزينة: يوم عاشوراء، ويوم النيروذ[1]، ويوم عيد كان لهم في كل عام، ويوم كانوا يتخذون فيه سوقاً ويتزينون ذلك اليوم، قرئ: ﴿نُخْلِفُهُ﴾: بالرفع على الوصف للموعد، وبالجزم على جواب الأمر، وقرئ: ﴿سُوًى﴾، وسوى: بالكسر والضم، ومنوناً وغير منون، ومعناه: منصفاً بيننا[2]، وبينك عن مجاهد، وهو من الاستواء؛ لأنّ المسافة من الوسط إلى الطرفين مستوية لا تفاوت فيها، ومن لم ينون فوجهه أن يجري الوصل مجرى الوقف، قرئ: ﴿وإن تحشر الناس﴾: بالتاء والياء، يريد: وأن تحشر يا فرعون، وأن يحشر اليوم، ويجوز أن يكون فيه ضمير فرعون ذكره بلفظ الغيبة إما على العادة التي يخاطب بها الملوك، أو خاطب القوم بقوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ﴾، وجعل: ﴿يُحْشَرَ﴾: لفرعون، ومحل: ﴿وَأَن

= السؤال عن صريح الجواب. وأما ما لم يسئل عنه فلو ضمنه لم يفهم قصده إليه؛ إذ لا قرينة تدل عليه والله أعلم.

(١) قوله «ويوم النيروذ» لعله النيروز بالزاي كعبارة غيره. (ع)

(٢) قوله «منصفاً بيننا» أي وسطا، كما في الصحاح. (ع)

﴿يُحْشَرَ﴾: الرفع أو الجرّ، عطفاً على اليوم أو الزينة؛ وإنما واعدهم ذلك اليوم ليكون علو كلمة الله وظهور دينه وكبت الكافر[1] وزهوق الباطل على رؤوس الأشهاد وفي المجمع الغاص، لتقوى رغبة من رغب في اتباع الحق، ويكل حدّ المبطلين وأشياعهم، ويكثر المحدث بذلك الأمر العلم في كل بدو وحضر، ويشيع في جميع أهل الوبر والمدر.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١)﴾

﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا تدعوا آياته ومعجزاته سحراً، قرئ: ﴿فَيَسْحَتَكُمْ﴾، والسحت: لغة أهل الحجاز، والإسحات: لغة أهل نجد وبني تميم؛ ومنه قول الفرزدق [من الطويل]:

. . . . إلاّ مُسْحَتاً أَوْ مُجَلَّفُ

في بيت لا تزال الركب تصطك في تسوية إعرابه[2].

﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ (٦٢) قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ (٦٤)﴾

عن ابن عباس: إن نجواهم: إن غلبنا موسى اتبعناه، وعن قتادة: إن كان ساحراً فسنغلبه، وإن كان من السماء فله أمر، وعن وهب لما قال: ﴿وَيْلَكُمْ﴾... الآية، قالوا: ما هذا بقول ساحر، والظاهر أنهم تشاوروا في السر، وتجاذبوا أهداب القول، ثم قالوا: إن هذان لساحران، فكانت نجواهم في تلفيق هذا الكلام وتزويره؛ خوفاً من غلبتهما، وتثبيطاً للناس عن اتباعهما، قرأ أبو عمرو: (إن هذين لساحران): على الجهة الظاهرة المكشوفة، وابن كثير وحفص: إن هذان لساحران، على قولك: إن زيد لمنطلق، واللام

---

(١) قوله «وكبت الكافر» أي إذلاله. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله «في بيت لا تزال الركب تصطك في تسوية إعرابه» هو قوله:

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع   من المال إلا مسحتًا أو مجلفُ

والمسحت: المهلك. والمجلف: الذي أخذ من جوانبه، كما في الصحاح. (ع)

ينظر البيت في جمهرة اللغة ص ٣٨٦، ١٢٥٩، وخزانة الأدب ٢٣٧/١، ٥٤٣/٨، والخصائص ٩٩/١، ولسان العرب (سحت)، (جلف) (ودع)، وبلا نسبة في الإنصاف ١٨٨/١، وجمهرة اللغة ص ٤٨٧، وشرح شواهد الإيضاح ص ٢٧٩، وشرح المفصل ٣١/١، ١٠٣/١٠، والمحتسب ١/ ١٨٠، ٣٦٥/٢.

هي الفارقة بين إن النافية والمخففة من الثقيلة، وقرأ أبيّ: «إن ذان إلا ساحران»، وقرأ ابن مسعود: «أن هذان ساحران»: بفتح أن وبغير لام، بدل من النجوى[1]، وقيل في القراءة المشهورة: (إن هذان لساحران) هي لغة بلحارث بن كعب، جعلوا الاسم المثنى نحو الأسماء التي آخرها ألف، كعصا وسعدى، فلم يقلبوها ياء في الجر والنصب، وقال بعضهم: (أن) بمعنى: نعم، و(ساحران): خبر مبتدأ محذوف، واللام داخلة على الجملة تقديره: لهما ساحران، وقد أعجب به أبو إسحاق سموا مذهبهم الطريقة: ﴿ٱلْمُثْلَىٰ﴾، والسنة: الفضلى، وكل حزب بما لديهم فرحون، وقيل: أرادوا أهل طريقتهم المثلى، وهم: بنو إسرائيل؛ لقول موسى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [طه: ٤٧]، وقيل: «الطريقة»: اسم لوجوه الناس وأشرافهم الذين هم قدوة لغيرهم، يقال: هم ٢/ ١٤ب طريقة قومهم، ويقال للواحد ـ أيضاً ـ: هو طريقة قومه، ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ﴾، يعضده قوله: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ [طه: ٦٠] وقرئ: (فأجمعوا كيدكم) أي: أزمعوه واجعلوه مجمعاً عليه، حتى لا تختلفوا ولا يخلف عنه واحد منكم، كالمسألة المجمع عليها، أمروا بأن يأتوا صفًّا؛ لأنه أهيب في صدور الرائين، وروي أنهم كانوا سبعين ألفاً مع كل واحد منهم حبل وعصا، وقد أقبلوا إقبالة واحدة، وعن أبي عبيدة أنه فسر الصف بالمصلى؛ لأن الناس يجتمعون فيه لعيدهم وصلاتهم مصطفين، ووجه صحته أن يقع علماً لمصلى بعينه، فأمروا بأن يأتوه، أو يراد: ائتوا مصلى من المصليات، ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾: اعتراض، يعني: وقد فاز من غلب[2].

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾

﴿أن﴾: مع ما بعده إما منصوب بفعل مضمر، أو مرفوع بأنه خبر مبتدأ محذوف، معناه: اختر أحد الأمرين، أو الأمر إلقاؤك أو إلقاؤنا، وهذا التخيير منهم استعمال أدب حسن معه، وتواضع له وخفض جناح، وتنبيه على إعطائهم النصفة من أنفسهم[3]،

---

(١) قال السمين الحلبي: وفيه نظر لأن الاعتراض بالجملة القولية بين البدل والمبدل منه لا يصح، وأيضاً فإن الجملة القولية مفسرة للنجوى في قراءة العامة وكذا قاله الزمخشري أولاً فكيف يصح أن يجعل أن هذان ساحران بدلاً من النجوى؟ انتهى. الدر المصون.

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ وهذا تفسير معنى لا تفسر إعراب، وتفسير الإعراب إما أن تختار الإلقاء. انتهى الدر المصون.

(٣) قال محمود: «لقد ألهمهم الله حسن الأدب مع موسى عليه السلام في تخييره وإعطاء النصفة من أنفسهم» قال أحمد: وقبل ذلك تأدبوا معه بقولهم ﴿فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه﴾ ففوضوا ضرب الموعد إليه، وكما ألهم الله عز وجل موسى ههنا أن يجعلهم مبتدئين بما معهم ليكون إلقاؤه =

وكأن الله ـ عز وعلا ـ ألهمهم ذلك، وعلم موسى ـ صلوات الله عليه ـ اختيار إلقائهم أولاً، مع ما فيه من مقابلة أدب بأدب، حتى يبرزوا ما معهم من مكايد السحر، ويستنفدوا أقصى طوقهم ومجهودهم، فإذا فعلوا، أظهر الله سلطانه وقذف بالحق على الباطل فدمغه، وسلط المعجزة على السحر فمحقته، وكانت آية نيرة للناظرين، وعبرة بينة للمعتبرين، يقال: في (إذا) هذه: إذا المفاجأة، والتحقيق فيها أنها إذا الكائنة بمعنى: الوقت، الطالبة ناصباً لها وجملة تضاف إليها، خصت في بعض المواضع بأن يكون ناصبها فعلاً مخصوصاً، وهو فعل المفاجأة والجملة ابتدائية لا غير، فتقدير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾: ففاجأ موسى وقت تخييل سعى حبالهم وعصيهم، وهذا تمثيل، والمعنى: على مفاجأته حبالهم وعصيهم مخيلة إليه السعي[1]، وقرئ: (عصيهم): بالضم وهو الأصل، والكسر اتباع؛ ونحوه: دُلي ودِلي، وقُسي وقِسي، وقرئ: (تخيل): على إسناده

= العصا بعد قذفا بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق. كذلك ألهمه من الأول أن يجعل موعدهم يوم زينتهم وعيدهم، ليكون الحق أبلج على رءوس الأشهاد، فيكون أفضح لكيدهم وأهتك لستر حرمهم، والله أعلم.

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ قوله إنَّها زمانية قَوْلٌ مَرْجُوحٌ وهو مذهب الرياشي وقوله الطالبة ناصباً صحيح، وقوله وجملة تضاف إليها ليس صحيحاً عِنْدَ بَعْضِ أَصْحَابِنا، لأنّها إمَّا أنْ تَكُونَ هي خبر المبتدأ وإما أن تكون معمولة لخبر المبتدأ وإذا كان كذلك استحال أنْ تُضَافَ إلى الجملةِ، لأنَّها إما إنْ تكون بعض الجملة أَوْ مَعْمُولَةَ لِبَعْضِها فلا يُمْكِنُ الإضَافَةُ، وقوله خُصَّتْ في بعض المواضع إلخ قد بيَّنا الناصب لها وقوله والجملة بعدها ابتدائية لا غير، هذا الحصر ليس بصحيح بل جَوَّزَ الأخفشُ على أنَّ الجملة الفعلية المقترنة بِقَدْ تَقَعُ بَعْدَهَا، نحو خَرَجْتُ فَإِذَا قَدْ ضَرَبَ زَيْدٌ عَمْراً وهي على ذلك مسألة الاشتغال نحو خَرَجْتُ فَإِذَا زَيْدٌ قَدْ ضَرَبَه عَمْرُو فَرُفِعَ زَيْدٌ وَنَصْبِهِ على الاشتغال، وقوله والمعنى على مفاجأته حِبَالُهم وعِصِيُّهُمْ مخيلة إليه السعي، فهذا عكس ما قدر بل المعنى على مفاجأة حبالهم وعصيهم إياه فإذا قلت خَرَجْتُ فإذَا السَّبُعُ فالمعنى أنه فَاجأني السبُعُ وهَجَمَ ظهُوره، انتهى مَا رَدَّ به قوله.

وما رد به عليه غير لازم له، لأنه رَدَّ عليه بقول بعض النحاة وهو لا يلتزم ذلك القول حتى يرد به عليه لا سيما إذا كانَ المشهورُ غَيْرَهُ ومقصوره تفسير المعنى، قال أبو البقاء الفاء جواب ما حذف وتقديره فَأَلْقَوْا فإذَا، «فَإِذَا» في هذا ظرف مكان العامل فيه «فألْقَوْا» وفي هذا نظر لأنَّ أَلْقَوْا هذا لمقدر لا يطلب جواباً حتى يقول إلغاء جوابه، بل كان ينبغي أن يقول الفاء عاطفة هذه الجملة الفجائية على جملة أخرى مقدرة، وقوله ظرف مكان هذا مذهب المبرد وظاهر قول سيبويه أيضاً وإن كَانَ المشهورُ بقاءَهَا على الزمان وقوله إنَّ العامل فيها فَأَلْقَوْا لا يجوز لأن الفاء تمنع من ذلك، هذا كلام الشيخ ثم قال بعده ولأنَّ إذَا هذه إنَّما هي معمولة لخبر المبتدأ الذي هو حبالهم وعصيهم إنْ لم يجعلها هي في مواضع الخبر، لأنه يجوز أن يكون الخبر يخيل ويجوز أن يكون إذا «ويُخَيَّلُ» في موضع الحال وهذا نظير خرجت فَإِذَا الأسدُ رَابِضٌ وَرَابضاً، فإذا رَفَعْتَ رَابضاً كانت إذَا مَعْمُولة له والتقدير فبالحضرة الأسدُ رَابَضِ أو في المكان وإذا نصبت كانت إذا جرًا ولذلك يكتفي بها وبالمرفوع بعدها كلاماً، نحو خَرَجتُ فإذا الأسدُ. انتهى. الدر المصون.

إلى ضمير الحبال والعصي، وإبدال قوله: ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾: من الضمير بدل الاشتمال؛ كقولك: أعجبني زيد كرمه، وتخيل على كون الحبال والعصيّ مخيلة سعيها، وتخيل بمعنى: تتخيل، وطريقه طريق تخيل، ونخيل: على أنّ الله ـ تعالى ـ هو المخيل للمحنة والابتلاء، يروى أنهم لطخوها بالزئبق، فلما ضربت عليها الشمس، اضطربت واهتزت، فخيلت ذلك.

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾

إيجاس الخوف: إضمار شيء منه، وكذلك توجس الصوت: تسمع نبأة يسيرة[1] منه؛ وكان ذلك لطبع الجبلة البشرية، وأنه لا يكاد يمكن الخلو من مثله، وقيل: خاف أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: فيه تقرير لغلبته وقهره، وتوكيد بالاستئناف، وبكلمة التشديد، وبتكرير الضمير، وبلام التعريف، وبلفظ العلوّ، وهو الغلبة الظاهرة وبالتفضيل، وقوله: ﴿مَا فِي يَمِينِكَ﴾، ولم يقل: عصاك[2]: جائز أن يكون تصغيراً لها، أي: لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم، وألق العويد الفرد الصغير الجرم الذي في يمينك؛ فإنه بقدرة الله يتلقفها على وحدته وكثرتها، وصغره وعظمها، وجائز أن يكون تعظيماً لها[3]، أي: لا تحتفل بهذه الأجرام الكبيرة الكثيرة؛ فإن في يمينك شيئاً أعظم منها

---

(١) قوله «نبأة يسيرة» في الصحاح «النبأة»: الصوت الخفي. (ع)

(٢) قال محمود: «وقال ما في يمينك ولم يقل عصاك... إلخ» قال أحمد: وإنما المقصود بتحقيرها في جنب القدرة تحقير كيد السحرة بطريق الأولى؛ لأنها إذا كانت أعظم منه وهي حقيرة في جانب قدرة الله تعالى، فما الظن بكيدهم وقد تلقفته هذه الحقيرة الضئيلة؟ ولأصحاب البلاغة طريق في علو المدح بتعظيم جيش عدو الممدوح، ليلزم من ذلك تعظيم جيش الممدوح وقد قهره واستولى عليه، فصغر الله أمر العصا ليلزم منه تصغير كيد السحرة الداحض بها في طرفة عين.

(٣) عاد كلامه. قال محمود: «ويجوز أن يكون تعظيماً لأمرها إذ فيه تثبيت لقلب موسى على النصر» قال أحمد: وههنا لطيفة: وهو أنه تلقى من هذا النظم أولاً قصد التحقير، وثانياً قصد التعظيم، فلا بد من نكتة تناسب الأمرين وتلك ـ والله أعلم ـ هي إرادة المذكور مبهماً، لأن ما في يمينك أبهم من عصاك، وللعرب مذهب في التنكير والإبهام والإجمال، تسلكه مرة لتحقير شأن ما أبهمته وأنه عند الناطق به أهون من أن يخصه ويوضحه، ومرة لتعظيم شأنه وليؤذن أنه من عناية المتكلم والسامع بمكان يعني فيه الرمز والإشارة، فهذا هو الوجه في إسعاده بهما جميعاً. وعندي في الآية وجه سوى قصد التعظيم والتحقير والله أعلم، وهو أن موسى عليه السلام أول ما علم أن العصا آية من الله تعالى عند ما سأله عنها بقوله تعالى ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ ثم أظهر له تعالى آيتها، فلما دخل وقت الحاجة إلى ظهور الآية منها قال تعالى ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ ليتيقظ بهذه الصيغة للوقت الذي قال الله تعالى له ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ وقد أظهر له آيتها، فيكون ذلك تنبيهاً له وتأنيساً =

كلها، وهذه على كثرتها أقل شيء وأنزره عنده، فألقه يتلقفها بإذن الله ويمحقها، وقرئ: (تلقف): بالرفع على الاستئناف، أو على الحال، أي ألقها متلقفة، وقرئ: «تلقف»: بالتخفيف[1]، ﴿صَنَعُوٓاْ﴾: ههنا بمعنى: زوّروا وافتعلوا؛ كقوله تعالى: ﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧]، قرئ: (كيد ساحر): بالرفع والنصب، فمن رفع فعلى أنّ (ما): موصولة، ومن نصب فعلى أنها كافة، وقرئ: «كيد سحر»: بمعنى: ذي سحر، أو ذوي سحر، أو هم لتوغلهم في سحرهم كأنهم السحر بعينه وبذاته، أو بين الكيد[2]؛ لأنه يكون سحراً وغير سحر، كما تبين المائة بدرهم؛ ونحوه: علم فقه، وعلم نحو.

فإن قلت: لم وحد ساحر ولم يجمع؟

قلت: لأنّ القصد في هذا الكلام إلى معنى الجنسية، لا إلى معنى العدد، فلو جمع، لخيل أنّ المقصود هو العدد؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ﴾ أي: هذا الجنس.

فإن قلت: فلم نكر أوّلاً وعرف ثانياً؟

قلت: إنما نكر من أجل تنكير المضاف، لا من أجل تنكيره في نفسه؛ كقول العجاج [من الرجز]:

فِي سَعْيِ دُنْيَا طَالَمَا قَدْ مُدَّتِ[3]

= حيث خوطب بما عهد أن يخاطب به وقت ظهور آيتها، وذلك مقام يناسب التأنيس والتثبيت، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧﴾، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) قوله «وقرئ تلقف بالتخفيف» عبارة النسفي: تلقف بسكون اللام والفاء وتخفيف القاف: حفص، وتلقف: ابن ذكوان. الباقون: تلقف، فليحرر. (ع)

(٢) قوله «أو بين الكيد» لعله بعده سقطاً تقديره «بالسحر». (ع)

(٣) الحمد لله الذي استقلت بإذنه السماء*واطمأنت بإذنه الأرض وما تعنت*أوحى لها القرار فاستقرت وشدها بالراسيات الثبت والجاعل الغيث غياث الأمت *والجامع الناس ليوم البعث بعد الممات وهو محيي الموت يوم ترى النفوس ما أعدت

مـن نـزل إذا الأمـور غـبـت   فـي سـعـي دنـيـا طـالـمـا تـعـنـت

استقلت: ارتفعت. واطمأنت: انخفضت. وفي الشعر التضمين. والتعنت: الإتعاب أو التأخر والتثاقل، من العنا وهو التعب. وأوحى لها: ألهمها. والثبت: جمع ثابت، والوقف على هاء التأنيث، كالأمت بالتاء قليل. والموت: جمع مائت. والنزل: ما يعد للضيف، استعارة لما يقدمه الإنسان من الأعمال. وغبت: بلغت غبها رغايتها. وفي سعي: متعلق به. أو بتعنت بعده، أي: تعبت أو أتعبت. وضمن على المعنى الأول للنفوس، وعلى الثاني للدنيا، ونكرها لتنكير السعي دلالة على التقليل. أي في سعي دنيوي قليل.

للعجاج في ديوانه ١/ ٤١٠، وخزانة الأدب ٨/ ٢٩٦، ٢٩٨، ٢٩٩، وشرح شواهد الإيضاح ص ٣٥٠، وشرح المفصل ٦/ ١٠٠، وبلا نسبة في خزانة الأدب ٨/ ٣١٦، والمخصص ١٥/ ١٩٣.

وفي حديث عمر ـ رضي الله عنه ـ: «لاَ فِي أَمْرِ دُنْيَا وَلاَ فِي أَمْرِ آخِرَةٍ» (٩٥٣)، المراد تنكير الأمر، كأنه قيل: إن ما صنعوا كيد سحري، وفي سعي دنيوي، وأمر دنيوي وآخري؛ ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾؛ كقولهم: حيث سير، وأية سلك، وأينما كان.

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾

سبحان الله، ما أعجب أمرهم! قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود؛ ثم ألقوا رءوسهم بعد ساعة للشكر والسجود، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين[1] وروي أنهم لم يرفعوا رءوسهم حتى رأوا الجنة والنار ورأوا ثواب أهلها، وعن عكرمة: لما خروا سجداً أراهم الله في سجودهم منازلهم التي يصيرون إليها في الجنة.

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ ٢/ ١٥أ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾

﴿لَكَبِيرُكُمُ﴾: لعظيمكم، يريد: أنه أسحرهم وأعلاهم درجة في صناعتهم، أو لمعلمكم؛ من قول أهل مكة للمعلم: أمرني كبيري، وقال لي كبيري: كذا، يريدون: معلمهم وأستاذهم في القرآن وفي كل شيء، قرئ: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾: و«لأصلبنّ»: بالتخفيف، والقطع من خلاف: أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى؛ لأنّ كل واحد من العضوين خالف الآخر، بأن هذا يد وذاك رجل، وهذا يمين وذاك شمال، و«من»: لابتداء الغاية؛ لأن القطع مبتدأ وناشيء من مخالفة العضو العضو، لا من وفاقه إياه، ومحل الجار

---

٩٥٣ ـ قال الحافظ: «ذكره صاحب النهاية بغير إسناد وفي الباب عن ابن مسعود» اهـ.
قلت وهو في النهاية (٢/ ٣٤٠) بلفظ: «لا يجيئن أحدكم يوم القيامة سبهللاً».
أما أثر ابن مسعود فرواه الطبراني في الكبير (٩/ ١٠٦) رقم (٨٥٣٨) موقوفاً بلفظ: «إني لأكره أن أرى الرجل فارغاً لا من عمل دنيا ولا آخرة».
وفي رواية رقم (٨٥٣٩) «إني لأمقت....» وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢/ ٣٥٣) لأبي نعيم في الحلية وابن المبارك في الزهد.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٦٦): «رواه الطبراني في الكبير، وفيه راو لم يسم وبقية رجاله ثقات».

---

(١) قال محمود: «سبحان من فرق بين الإلقاءين إلقاءهم حبالهم وعصيهم... إلخ» قال أحمد: وفي تكرير لفظ الإلقاء والعدول عن مثل: فسجد السحرة، إيقاظ السامع لألطاف الله تعالى في نقله عباده من غاية الكفر والعناد إلى نهاية الإيمان والسداد، وهذا الإيقاظ لا يحصل على الوجه إلى هذا القصد إلا بتكرير لفظ واحد على معنيين متناقضين، وهو يناسب ما قدمته آنفاً في إيجاز الخطاب في قوله ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ﴾ ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ فتأمله فإن الحق حسن متناسب، والله الموفق.

والمجرور النصب على الحال، أي: لأقطعنها مختلفات؛ لأنها إذا خالف بعضها بعضاً فقد اتصفت بالاختلاف، شبه تمكن المصلوب في الجذع بتمكن الشيء الموعى في وعائه؛ فلذلك قيل: ﴿فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾، ﴿أَيُّنَآ﴾: يريد: نفسه لعنه الله وموسى ـ صلوات الله عليه ـ بدليل قوله: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾، واللام مع الإيمان في كتاب الله لغير الله تعالى؛ كقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١] وفيه نفاجة[1] باقتداره وقهره، وما ألفه وضرى به: من تعذيب الناس بأنواع العذاب، وتوضيع لموسى ـ عليه السلام ـ واستضعاف له مع الهزء به؛ لأن موسى لم يكن قط من التعذيب في شيء.

﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾

﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾: عطف على ما جاءنا أو قسم، قرئ: ﴿تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾، ووجهها أن الحياة في القراءة المشهورة منتصبة على الظرف، فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به؛ كقولك في «صمت يوم الجمعة»: «صيم يوم الجمعة»، وروي أن السحرة ـ يعني رءوسهم ـ كانوا اثنين وسبعين: الاثنان من القبط، والسائر من بني إسرائيل، وكان فرعون أكرههم على تعلم السحر، وروي أنهم قالوا لفرعون: أرنا موسى نائماً ففعل، فوجدوه تحرسه عصاه، فقالوا: ما هذا بسحر الساحر؛ لأن الساحر إذا نام بطل سحره، فأبى إلا أن يعارضوه، ﴿تَزَكَّىٰ﴾: تطهر من أدناس الذنوب، وعن ابن عباس: قال: لا إله إلا الله، قيل: في هذه الآيات الثلاث: هي حكاية قولهم، وقيل: خبر من الله، لا على وجه الحكاية.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَـٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾

﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا﴾: فاجعل لهم؛ من قولهم: ضرب له في ماله سهماً، وضرب

---

(١) قوله «وفيه نفاجة» في الصحاح «رجل نفاج» إذا كان صاحب فخر وكبر. (ع)

اللبن: عمله، اليبس: مصدر وصف به، يقال: يبس يبساً ويبساً[1]؛ ونحوهما: العدم والعدم، ومن ثم وصف به المؤنث، فقيل؛ شاتنا يبس، وناقتنا يبس: إذا جف لبنها، وقرئ: «يبسا»، و«يابسا»، ولا يخلو اليبس من أن يكون مخففاً عن اليبس، أو صفة على فعل، أو جمع يابس، كصاحب وصحب، وصف به الواحد تأكيداً؛ كقوله [من الوافر]:

. . . . وَمِـعًـى جِـيَـاعَـا[2]

جعله لفرط جوعه كجماعة جياع ﴿لَّا تَخَٰفُ﴾: حال من الضمير في ﴿فَٱضۡرِبۡ﴾ وقرئ: «لا تخف»: على الجواب، وقرأ أبو حيوة: ﴿دَرَكٗا﴾: بالسكون، والدرك والدرك: اسمان من الإدراك، أي: لا يدركك فرعون وجنوده لا يلحقونك، في ﴿وَلَا تَخۡشَىٰ﴾: إذا قرئ: «لا تخف»: ثلاثة أوجه: أن يستأنف، كأنه قيل: وأنت لا تخشى، أي: ومن شأنك أنك آمن لا تخشى، وألا تكون الألف المنقلبة عن الياء التي هي لام الفعل، ولكن: زائدة للإطلاق من أجل الفاصلة؛ كقوله: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧]، ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠]، وأن يكون مثله قوله [من الطويل]:

. . . . كَـأَنْ لَـمْ تَـرَىٰ قَـبْـلِـي أَسِـيـراً يَـمَـانِـيَـا[3]

---

(١) قال محمود: «قرئ بسكون الباء وبفتحها. . . إلخ» قال أحمد: ووجه آخر وهو أن قدر كل جزء من أجزاء الطريق طريقاً، وقد كانت بهذه المثابة لأنها كانت اثني عشر طريقاً لكل سبط طريق، والله أعلم.

(٢)
كأن قتود رحلي حين ضمت ... حوالب غرزًا ومعًى جياعا
على وحشية خذلت خلوج ... وكان لها طلا طفل فضاعا
فكرت تبتغيه فصادفته ... على دمه ومصرعه السباعا

للقطامي في مدح زفر بن الحارث الكلابي. والقتود: عيدان الرحل: جمع أقتاد: جمع قتد، والحالبان عرقان يكتنفان السرة. والغرز: جمع غارز ـ بتقديم الراء ـ قليلات اللبن، ضد الغزر بتقديم الزاي. والمعي: مجرى الطعام في البطن من الحوايا. وصفه بصورة الجمع ـ وهو جياعا ـ مبالغة. والمعنى: جائعاً. وهذا كناية عن هزال الناقة من شدة السير. وفيه إيماء لفقره وفاقته. و«على وحشية» خبر كان. والوحشية: الظبية. وخذلت: صفتها، أي: تركها سرب الظباء. وخلوج: صفة أخرى. وخلج واختلج: اضطرب وذهب. وخلجه واختلجه: انتزعه واجتذبه. والخلوج: التي اختلج ولدها من الظباء أو الإبل. أو التي اختلج قلبها لعدم رؤيته. والطلاء: ولد الظبية ونحوها من ذوات الظلف، طفل: أي صغير، فكرت: رجعت بسرعة تطلبه. والسباع: بدل إضرابي انتقالي من ضمير صادفته. أو نصب بمضمر دل عليه صادفته، أي: صادفت السباع واقفة على دمه ومصرعه، أي: محل طرحه على الأرض، شبه الناقة بها في تلك الحال لسرعتها ويقظتها. ينظر البيت في ديوانه ص ٤١، والأشباه والنظائر ١٩٨/٤، وشرح شواهد الإيضاح ص ٢٢٩، ولسان العرب (غرز)، ٢٨٧/١٥ (معي)، وتاج العروس (غرز)، (معا).

(٣)
وتضحك مني شيخة عبشمية ... كأن لم ترى قبلي أسيراً يمانيا
وظل نساء الحي حولي ركدًا ... يراودن مني ما تريد نسائيا

لعبد يغوث بن وقاص الحارثي: أسر يوم الكلاب في بني تميم، فقال قصيدة يذكر فيها حاله منها =

﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾: من باب الاختصار، ومن جوامع الكلم التي تستقل مع قلتها بالمعاني الكثيرة، أي: غشيهم ما لا يعلم كنهه إلا الله، وقرئ: فغشاهم من اليم ما غشاهم، والتغشية: التغطية، وفاعل غشاهم: إما الله سبحانه، أو ما غشاهم، أو فرعون؛ لأنه الذي ورّط جنوده وتسبب لهلاكهم، وقوله: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾: تهكم به[1]، في قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ (٨٠) كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ (٨١)﴾

﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: خطاب لهم بعد إنجائهم من البحر، وإهلاك آل فرعون، وقيل: هو للذين كانوا منهم في عهد رسول الله ـ ﷺ ـ منّ الله عليهم بما فعل بآبائهم والوجه هو الأوّل، أي: قلنا: يا بني إسرائيل، وحذف القول كثير في القرآن، وقرئ: ﴿أنجيتكم﴾

= ذلك. والشيخة: العجوز. والعبشمية: المنسوبة لعبد شمس. وهو باب من النحت. وأثبت الألف في «ترى» مع أنه مجزوم لضرورة الوزن، أو للاتساع. وقيل إنها عين الفعل. وأصله ترای حذفت لامه للجزم. ونقلت حركة الهمزة للراء، وأبدلت الفاء. وحكى إعمال «لم» للنصب. وحكى أيضاً إهمالها. وقياس النسبة إلى «يمن»: «يمنى» لكنهم حذفوا إحدى ياءي النسب، وعوضوا عنها الألف، وكان الذي يقوده صبيا، فسألته: من أنت؟ فقال: سيد القوم، فضحكت منه. والركد ـ كركع ـ: جمع راكدة، أي مقيمة لا تذهب من عنده. والمراودة: مفاعلة من راد يرود إذا تعرف حال المكان متطلبا للخصب، وهو قريب من معنى أراد يريد، أي: يتطلبن مني بلطف واختبار: هل أرضى أو لا؟ الشيء الذي تريده نسائي مني، وهو الجماع.

ينظر البيت في الأغاني ١٦/٢٥٨، وخزانة الأدب ٢/١٩٦، ٢٠٢، وسرّ صناعة الإعراب ١/٧٦، وشرح اختيارات المفضّل ص ٧٦٨، وشرح شواهد الإيضاح ص ٤١٤، وشرح شواهد المغني ٢/ ٦٧٥، ولسان العرب (هذذ)، (قدر)، (شمس)، ومغني اللبيب ١/٢٧٧، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر ٢/١٥، وشرح الأشموني ١/٤٦، وشرح المفصل ٥/٩٧، ١٠/١٠٧، والمحتسب ١/ ٦٩.

(١) قال محمود: «إنما قيل وما هدى تهكماً به» قال أحمد: فإن قلت: التهكم أن يأتي بعبارة والمقصود عكس مقتضاها، كقولهم: إنك لأنت الحليم الرشيد، وغرضهم وصفه بضد هذين الوصفين. وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ فمضمونه هو الواقع، فهو حينئذٍ مجرد إخبار عن عدم هدايته لقومه. قلت: هو كذلك، ولكن العرف مثل ما هدى زيد عمراً ثبوت كون زيد عالماً بطريق الهداية، مهتدياً في نفسه، ولكنه لم يهد عمرا. وفرعون أضل الضالين في نفسه، فكيف يتوهم أنه يهدي غيره. وتحقيق ذلك: أن قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ كاف في الإخبار بعدم هدايته لهم مع مزيد إضلاله إياهم، فإن من لا يهدي قد لا يضل، فيكون كفافا. وإذا تحقق غناء الأول في الإخبار، تعين كون الثاني لمعنى سواه، وهو التهكم. والله أعلم.

إلى ﴿رزقتكم﴾، وعلى لفظ الوعد والمواعدة، وقرئ: ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾: بالجر على الجوار؛ نحو: «جحر ضب خرب»، ذكرهم النعمة في نجاتهم وهلاك عدوهم، وفيما واعد موسى ـ صلوات الله عليه ـ من المناجاة بجانب الطور، وكتب التوراة في الألواح؛ وإنما عدى المواعدة إليهم لأنها لابستهم واتصلت بهم؛ حيث كانت لنبيهم ونقبائهم، وإليهم ٢/ ١٥ب رجعت منافعها التي قام بها دينهم وشرعهم، وفيما أفاض عليهم من سائر نعمه وأرزاقه، طغيانهم في النعمة: أن يتعدّوا حدود الله فيها بأن يكفروها ويشغلهم اللهو والتنعم عن القيام بشكرها، وأن ينفقوها في المعاصي، وأن يزووا حقوق الفقراء فيها، وأن يسرفوا في إنفاقها، وأن يبطروا فيها ويأشروا ويتكبروا، قرئ: ﴿فَيَحِلَّ﴾، وعن عبد الله: «لا يحلن»[١]، ﴿وَمَن يَحْلِلْ﴾: المكسور في معنى: الوجوب، من حل الدين يحل: إذا وجب أداؤه، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ [البقرة: ١٩٦]، والمضموم في معنى النزول، وغضب الله عقوباته[٢]؛ ولذلك وصف بالنزول، ﴿هَوَىٰ﴾: هلك، وأصله: أن يسقط من جبل فيهلك.

قالت: [من مجزوء الوافر]

هَوَىٰ مِنْ رَأْسِ مَرْقَبَةٍ ... فَفُتَّتَ تَحْتَهَا كَبِدُهْ[٣]

---

(١) قوله «قرئ فيحل وعن عبد الله... إلخ» يفيد أن القراءة المشهورة: فيحل. ومن يحلل ـ بالكسر. ولتحرر قراءة (لا يحلن) هل هي بالكسر أو بالضم. (ع)

(٢) قال محمود: «الغضب عقوبة الله تعالى لهم... إلخ» قال أحمد: لا يسعه أن يحمل الغضب إلا على العقوبة لأنه ينفي صفة الإرادة في جملة ما ينفونه من صفات الكمال، وأما على قاعدة السنة فيجوز أن يكون المراد من الغضب إرادة العقوبة، فيكون من أوصاف الذات. ويحتمل أن يراد به معاملتهم بما يعامل به من غضب عليه شاهداً، فيكون من صفات الأفعال. وأما وصفه بالحلول فلا يتأتى حمله على الإرادة، ويكون بمنزلة قوله عليه الصلاة والسلام (ينزل ربنا إلى سماء الدنيا) على التأويل المعروف. أو عبر عن حلول أثر الإرادة بحلولها تعبيراً عن الأثر بالمؤثر، كما يقول الناظر إلى عجيب من مخلوقات الله تعالى: انظر إلى قدرة الله يعني أثر القدرة لا نفسها، والله أعلم.

(٣)
هوى ابني من على شرف ... يهول عقابه صعده
هوى من رأس مرقبة ... ففتت تحتها كبده
ألام على تبكيه ... وألمه فلا أجده
وكيف يلام محزون ... كبير فاته ولده؟!

لأعرابي، يقول: سقط ابني من فوق جبل عال. فعلى بمعنى فوق، ولو قرئ: على، بالضم ـ جمع علية ـ لجاز، أي: سقط عن ذرى جبل عال، فالشرف: مصدر مستعمل في الوصف مجاز. يهول: أي يخيف، عقابه: ارتفاعه. وصعد ـ بالكسر ـ صعدا ـ بفتحتين وضمتين ـ صعوداً: ارتفع، والضمير للعقاب أو للشرف، فهو من إضافة المصدر لفاعله، ويجوز أنه من إضافته لمفعوله، أي: صعوده عليه. وخص العقاب، لأنه أشد الطير صعوداً، لا سيما عقاب ذلك الجبل العارف به. =

ويقولون: هوت أمه، أو سقط سقوطاً لا نهوض بعده.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾

الاهتداء: هو الاستقامة والثبات على الهدى المذكور وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح، ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠]، وكلمة التراخي دلت على تباين المنزلتين دلالتها على تباين الوقتين في «جاءني زيد ثم عمرو» أعني: أنّ منزلة الاستقامة على الخير مباينة لمنزلة الخير نفسه؛ لأنها أعلى منها وأفضل.

﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ﴾ أي شيء عجل بك عنهم على سبيل الإنكار، وكان قد مضى مع النقباء إلى الطور على الموعد المضروب، ثم تقدمهم شوقاً إلى كلام ربه وتنجز ما وعد به؛ بناء على اجتهاده وظنه أن ذلك أقرب إلى رضا الله تعالى، وزل عنه أنه ـ عز وجل ـ ما وقت أفعاله إلا نظراً إلى دواعي الحكمة، وعلماً بالمصالح المتعلقة بكل وقت، فالمراد بالقوم: النقباء، وليس لقول من جوز أن يراد جميع قومه، وأن يكون قد فارقهم قبل الميعاد وجه صحيح، يأباه قوله: ﴿هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾، وعن أبي عمرو ويعقوب: «إثري»: بالكسر، وعن عيسى بن عمر: «أثرى»: بالضم، وعنه ـ أيضاً ـ: «أولى بالقصر»، والإثر: أفصح من الأثر، وأما الأثر فمسموع في فرند السيف[1] مدوّن في الأصول، يقال: إثر السيف وأثره، وهو بمعنى: الأثر غريب.

فإن قلت: (ما أعجلك) سؤال عن سبب العجلة[2]، فكان الذي ينطبق عليه من

= وكرر «هوى» لإظهار التحزن، أي: سقط من رأس ثنية عالية يرقب فيها الرقيب، فمزقت كبده تحتها، أي: بجانبها، فكيف ببقية جسمه. ويروى: ففزت بتشديد الزاي بمعنى فزعت. وروي «ففرت» بتشديد الراء، وأصله: فريت. وهذه لغة طيء. يقولون: المرأة دعت في دعيت. والدار بنت في بنيت، ثم قال: يلومني الناس على البكاء مع أنني ألمسه، من باب قتل وضرب، أي: أريد لمسه فلا أجده، وكيف يلام حزين هرم يئس من رجوع ولده إليه، أو من أوان التوالد. وقيل: إن القائل أم القتيل، لكن يروى بعد البيت الأول:

فلا أم فتبكيه ... ولا أخت فتفتقده
هوى عن صخرة صلد ... ففرت تحتها كبده

إلى آخره...

(١) قوله «فرند السيف» أي ربده ووشيه، كذا في الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «إن قلت: سئل عن سبب العجلة... إلخ» قال أحمد: وإنما أراد الله تعالى بسؤاله عن سبب العجلة وهو أعلم: أن يعلم موسى أدب السفر، وهو أنه ينبغي تأخير رئيس القوم عنهم =

الجواب أن يقال: طلب زيادة رضاك أو الشوق إلى كلامك وتنجز موعدك، وقوله: ﴿هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ كما ترى غير منطبق عليه.

قلت: قد تضمن ما واجهه به رب العزة شيئين، أحدهما: إنكار العجلة في نفسها، والثاني: السؤال عن سبب المستنكر والحامل عليه، فكان أهمّ الأمرين إلى موسى بسط العذر وتمهيد العلة في نفس ما أنكر عليه، فاعتل بأنه لم يوجد مني إلا تقدّم يسير، مثله لا يعتدّ به في العادة ولا يحتفل به، وليس بيني وبين من سبقته إلا مسافة قريبة يتقدّم بمثلها الوفد رأسهم ومقدمهم، ثم عقبه بجواب السؤال عن السبب فقال: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾، ولقائل أن يقول: حار لما ورد عليه من التهيب لعتاب الله، فأذهله ذلك عن الجواب المنطبق المرتب على حدود الكلام.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾﴾

أراد بالقوم المفتونين: الذين خلفهم مع هارون، وكانوا ستمائة ألف، ما نجا من عبادة العجل منهم إلا اثنا عشر ألفا.

فإن قلت: في القصة أنهم أقاموا بعد مفارقته عشرين ليلة، وحسبوها أربعين مع أيامها، وقالوا: قد أكملنا العدة، ثم كان أمر العجل بعد ذلك، فكيف التوفيق بين هذا وبين قوله تعالى لموسى عند مقدمه: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾؟

قلت: قد أخبر الله ـ تعالى ـ عن الفتنة المترقبة، بلفظ الموجودة الكائنة على عادته، أو افترص السامري غيبته، فعزم على إضلالهم غب انطلاقه، وأخذ في تدبير ذلك، فكان بدء الفتنة موجوداً، قرئ: ﴿وَأَضَلُّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾، أي: وهو أشدهم ضلالاً؛ لأنه ضال مضل، وهو منسوب إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها: السامرة، وقيل: السامرة قوم من اليهود يخالفونهم في بعض دينهم، وقيل: كان من أهل باجرما، وقيل: كان علجاً من كرمان، واسمه: موسى بن ظفر، وكان منافقاً قد أظهر الإسلام، وكان من قوم يعبدون البقر.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ

= في المسير ليكون نظره محيطاً بطائفته ونافذاً فيهم ومهيمنا عليهم. وهذا المعنى لا يحصل في تقدمه عليهم، ألا ترى الله عز وجل كيف علم هذا الأدب لوطا فقال: ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ فأمره أن يكون أخيرهم. على أن موسى عليه السلام إنما أغفل هذا الأمر مبادرة إلى رضا الله عز وجل، ومسارعة إلى الميعاد، وذلك شأن الموعود بما يسره، يود لو ركب إليه أجنحة الطير، ولا أسر من مواعدة الله تعالى له ﷺ.

عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾﴾

الأسف: الشديد الغضب، ومنه قوله ـ عليه السلام ـ في موت الفجأة: «رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِ وَأَخْذَةُ أَسَفٍ لِلْكَافِرِ» (٩٥٤)، وقيل: الحزين.

فإن قلت: متى رجع إلى قومه؟

قلت: بعد ما استوفى الأربعين: ذا القعدة، وعشر ذي الحجة، وعدهم الله ـ سبحانه ـ أن يعطيهم التوراة التي فيها هدى ونور، ولا وعد أحسن من ذاك وأجمل، حكى لنا أنها كانت ألف سورة كل سورة ألف آية، يحمل أسفارها سبعون جملاً، ﴿ٱلْعَهْدُ﴾: الزمان، يريد: مدة مفارقته لهم، يقال: طال عهدي بك، أي: طال زماني بسبب مفارقتك، وعدوه أن يقيموا على أمره وما تركهم عليه من الإيمان، فأخلفوا موعده بعبادتهم العجل، ﴿بِمَلْكِنَا﴾ ٢/١٦أ: قرئ بالحركات الثلاث، أي: ما أخلفنا موعدك بأن ملكنا أمرنا، أي: لو ملكنا أمرنا وخلينا وراءنا لما أخلفناه، ولكنا غلبنا من جهة السامري وكيده، أي: حملنا

---

٩٥٤ ـ أخرجه أحمد في المسند (٦/١٣٦) ثنا وكيع ثنا عبيد الله بن الوليد، عن عبد الله بن عبيد بن عمير، عن عائشة قالت: «سألت رسول الله ـ ﷺ ـ عن موت الفجأة فقال: راحة للمؤمن وأخذة أسف للفاجر».

ورواه عبد الرزاق في مصنفه (٣/٥٩٨) رقم (٦٧٨١)، وقال الهيثمي في المجمع (٢/٣٢١): «رواه أحمد والطبراني في الأوسط وفيه قصة، وفيه عبيد الله بن الوليد الرصافي وهو متروك».

ورواه عبد الرزاق (٣/٥٩٦) رقم (٦٧٧٦) وابن أبي شيبة في المصنف (٣/٤٨) رقم (١٢٠٠٥) عن ابن مسعود موقوفاً. ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣/٤٨) رقم (١٢٠٠٧) عن عبد الله بن مسعود وعائشة موقوفا.

وأخرجه أبو داود (٢/٢٠٥) كتاب الجنائز، باب في موت الفجأة حديث (٣١١٠) مرفوعاً وموقوفاً بلفظ «موت الفجأة أخذة أسف».

وأخرجه ابن أبي شيبة (٣/٤٨) رقم (١٢٠١٠) حدثنا غندر، عن شعبة، عن منصور، عن تميم بن سلمة، عن عبيد بن خالد، عن رجل من أصحاب محمد ـ ﷺ ـ في موت الفجأة قال: أخذه أسف.

قال الحافظ: أخرجه أحمد من طريق عبد الله بن عبيد بن عمير عن عائشة: «سألت رسول الله ـ ﷺ ـ عن موت الفجأة ـ فذكره وله طريق أخرى عند عبد الرزاق مرفوعة، وفيها يحيى بن العلاء الرازي وهو ضعيف. ورواه هو وابن أبي شيبة والطبراني من حديثهما موقوفاً، وعن ابن مسعود أيضاً موقوفاً. وفي الباب عن أنس في الجنائز لابن شاهين وعن عبيد بن خالد عند أبي داود بلفظ «موت الفجأة أخذة أسف». انتهى.

أحمالاً من حليّ القبط التي استعرناها منهم، أو أرادوا بالأوزار: أنها آثام وتبعات؛ لأنهم كانوا معهم في حكم المستأمنين في دار الحرب، وليس للمستأمن أن يأخذ مال الحربي، على أن الغنائم لم تكن تحل حينئذٍ، ﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾: في نار السامري، التي أوقدها في الحفرة وأمرنا أن نطرح فيها الحليّ، وقرئ: حملنا، ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾: أراهم أنه يلقى حليًا في يده مثل ما ألقوا؛ وإنما ألقى التربة التي أخذها من موطىء حيزوم فرس جبريل، أوحى إليه وليه الشيطان أنها إذا خالطت مواتا صار حيوانا، ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ﴾: السامري من الحفرة عجلاً خلقه الله من الحليّ التي سبكتها النار يخور كما تخور العجاجيل.

فإن قلت: كيف أثرت تلك التربة في إحياء الموات؟

قلت: أما يصحّ أن يؤثر الله ـ سبحانه ـ روح القدس بهذه الكرامة الخاصة كما آثره بغيرها من الكرامات، وهي: أن يباشر فرسه بحافره تربة إذا لاقت تلك التربة جماداً أنشأه الله إن شاء عند مباشرته حيواناً؛ ألا ترى كيف أنشأ المسيح من غير أب عند نفخه في الدرع.

فإن قلت: فلم خلق الله العجل من الحليّ حتى صار فتنة لبني إسرائيل[1] وضلالاً؟

قلت: ليس بأوّل محنة محن الله بها عباده ليثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين، ومن عجب من خلق العجل، فليكن من خلق إبليس أعجب، والمراد بقوله: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾: هو خلق العجل للامتحان، أي: امتحناهم بخلق العجل، وحملهم السامري على الضلال، وأوقعهم فيه حين قال لهم: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾: أي: فنسي موسى أن يطلبه ههنا، وذهب يطلبه عند الطور، أو فنسي السامري: أي ترك ما كان عليه من الإيمان الظاهر.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾

﴿يَرْجِعُ﴾: من رفعه فعلى أنّ أن مخففة من الثقيلة، ومن نصب فعلى أنها الناصبة

---

(١) قال محمود: «إن قلت لم خلق الله العجل فتنة لهم» قال أحمد: هذا السؤال وجوابه تقدما له في أول سورة الأعراف. وقد أوضحنا أن الله تعالى إنما تعبدنا بالبحث عن علل أحكامه لا علل أفعاله. وجواب هذا السؤال في قوله تعالى: ﴿لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون﴾ فهذا الأمر جائز. وقد أخبر الله تعالى بوقوعه فلا نبتغي وراء ذلك سبيلا، لكن الزمخشري تقتضي قاعدته في وجوب رعاية المصالح على الله تعالى وتحتم هداية الخلق عليه: أن يؤول ذلك ويحرفه. فذرهم وما يفترون.

للأفعال، ﴿مِن قَبۡلُ﴾: من قبل أن يقول لهم السامري ما قال، كأنهم أوّل ما وقعت عليه أبصارهم حين طلع من الحفرة افتتنوا به واستحسنوه، فقبل أن ينطق السامري بادرهم هارون ـ عليه السلام ـ بقوله: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾.

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾﴾

لا مزيدة، والمعنى: ما منعك أن تتبعني في الغضب لله وشدة الزجر عن الكفر والمعاصي؟ وهلا قاتلت من كفر بمن آمن؟ ومالك لم تباشر الأمر كما كنت أباشره أنا لو كنت شاهدا؟ أو مالك لم تلحقني.

﴿قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴿٩٤﴾﴾

قرئ: ﴿بِلِحۡيَتِي﴾: بفتح اللام(١)، وهي لغة أهل الحجاز، كان موسى ـ صلوات الله عليه ـ رجلاً حديداً مجبولاً على الحدة والخشونة والتصلب في كل شيء، شديد الغضب لله ولدينه، فلم يتمالك حين رأى قومه يعبدون عجلاً من دون الله بعد ما رأوا من الآيات العظام، أن ألقى ألواح التوراة لما غلب ذهنه من الدهشة العظيمة؛ غضباً لله واستنكافاً وحمية، وعنف بأخيه وخليفته على قومه، فأقبل عليه إقبال العدوّ المكاشف قابضاً على شعر رأسه ـ وكان أفرع(٢) ـ وعلى شعر وجهه يجرّه إليه، أي: لو قاتلت بعضهم ببعض لتفرقوا وتفانوا، فاستأنيتك أن تكون أنت المتدارك بنفسك، المتلافي برأيك، وخشيت عتابك على إطراح ما وصيتني به من ضم النشر وحفظ الدهماء(٣)، ولم يكن لي بد من رقبة وصيتك والعمل على موجبها.

﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴿٩٦﴾﴾

الخطب: مصدر خطب الأمر إذا طلبه، فإذا قيل لمن يفعل شيئاً: ما خطبك؟ فمعناه: ما طلبك له؟ قرئ: ﴿بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ﴾: بالكسر(٤)، والمعنى: علمت ما لم تعلموه، وفطنت ما لم تفطنوا له، قرأ الحسن: (قبضة): بضم القاف، وهي اسم

---

(١) قوله «قرىء بلحيتي بفتح اللام» والقراءة المشهورة: بالكسر. (ع)
(٢) قوله «وكان أفرع» أي تام الشعر. أفاده الصحاح. (ع)
(٣) قوله «وحفظ الدهماء» أي الجماعة. أفاده الصحاح. (ع)
(٤) قوله «وقرىء بصرت بما لم يبصروا به بالكسر» والقراءة المشهورة بالضم. وقرىء: تبصروا به. =

المقبوض، كالغرفة والمضغة، وأما القبضة فالمرة من القبض، وإطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر، كضرب الأمير، وقرأ ـ أيضاً ـ: فقبصت قبصة، بالصاد المهملة، الضاد: بجميع الكف، والصاد: بأطراف الأصابع؛ ونحوهما: الخضم، والقضم: الخاء بجميع الفم، والقاف بمقدمه، قرأ ابن مسعود: من أثر فرس الرسول.

فإن قلت: لم سماه الرسول دون جبريل وروح القدس؟

قلت: حين حل ميعاد الذهاب إلى الطور، أرسل الله إلى موسى جبريل راكب حيزوم فرس الحياة؛ ليذهب به، فأبصره السامري فقال: إنّ لهذا شأناً، فقبض قبضة من تربة موطئه، فلما سأله موسى عن قصته قال: قبضت من أثر فرس المرسل إليك يوم حلول الميعاد، ولعله لم يعرف أنه جبريل.

﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ ٢/ ١٦ب لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾

عوقب في الدنيا بعقوبة لا شيء أطم منها وأوحش؛ وذلك أنه منع من مخالطة الناس منعاً كليًا، وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته وكل ما يعايش به الناس بعضهم بعضاً، وإذا اتفق أن يماس أحداً رجلاً أو امرأة، حم الماس والممسوس، فتحامى الناس وتحاموه، وكان يصيح: لا مساس، وعاد في الناس أوحش من القاتل اللاجىء إلى الحرم، ومن الوحشي النافر في البرية، ويقال: إن قومه باق فيهم ذلك إلى اليوم، وقرئ: ﴿لَا مَسَاسِ﴾: بوزن فجار؛ ونحوه قولهم في الظباء، إذا وردت الماء: فلا عباب، وإن فقدته: فلا أباب، وهي أعلام للمسة والعبة والأبة، وهي المرة من الأب وهو الطلب، ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ أي: لن يخلفك الله موعده الذي وعدك على الشرك والفساد في الأرض، ينجزه لك في الآخرة بعد ما عاقبك بذلك في الدنيا، فأنت ممن خسر الدنيا والآخرة؛ ذلك هو الخسران المبين، وقرئ: «لن تخلفه»، وهذا من أخلفت الموعد إذا وجدته خلفاً؛ قال الأعشى: [من الكامل]

أَثْــوَىٰ وَأَقْــصَــرَ لَــيْــلَــهُ لِــيُــزَوِّدَا ... فَـمَـضَـىٰ وَأَخْلَفَ مِنْ قُتَيلَةَ مَوْعِدَا[1]

= بالتاء: وعبارة النسفي: وبالتاء حمزة وعلي، ولعلها سقطت هنا سهواً من الناسخ، فليحرر. (ع)

(١) أثـوى وأقـصـر لـيـلـه لـيـزودا ... فمضت وأخلف من قتيلة موعداً
ومضى لحاجته وأصبح حبله ... خلقاً وكان بحالة لن ينكدا

للأعشى. وأقصر عن الشيء: أقلع عنه وامتنع منه. وأقصره: وجده قصيراً. وروي «قصر» بالتشديد. وروي «ليله» بالإضافة إلى الضمير، لكن الذي في ديوان الأعشى «ليلة» بالتاء. وثوى =

وعن ابن مسعود: «نخلفه»: بالنون، أي: لن يخلفه الله، كأنه حكى قوله عز وجل كما مر في ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ [مريم: ١٩]، ﴿ظَلْتَ﴾ وظلت، وظللت والأصل: ظللت، فحذفوا اللام الأولى، ونقلوا حركتها إلى الظاء، ومنهم من لم ينقل: ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾، ولنحرقنه ولنحرقنه، وفي حرف ابن مسعود: «لنذبحنه»، و«لنحرقنه»، و«لنحرقنه»: القراءتان من الإحراق، وذكر أبو علي الفارسي في لنحرقنه أنه يجوز أن يكون حرّق مبالغة في حرق إذا برد بالمبرد، وعليه القراءة الثالثة، وهي قراءة علي بن أبي طالب، رضي الله عنه (لننسفنه): بكسر السين وضمها، وهذه عقوبة ثالثة، وهي: إبطال ما افتتن به وفتن، وإهدار سعيه، وهدم مكره: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران: ٥٤].

﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾

قرأ طلحة: الله الذي لا إله إلا هو الرحمن رب العرش، ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، وعن مجاهد وقتادة: «وسع»، ووجهه: أن وسع متعدّ إلى مفعول واحد، وهو كل شيء، وأمّا: (علما): فانتصابه على التمييز، وهو في المعنى فاعل، فلما ثقل نقل إلى التعدية إلى مفعولين، فنصبهما معاً على المفعولية؛ لأنّ المميز فاعل في المعنى، كما تقول في «خاف زيد عمراً»: خوفت زيداً عمراً، فترد بالنقل ما كان فاعلاً مفعولاً.

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾

الكاف في ﴿كَذَٰلِكَ﴾: منصوب المحل؛ وهذا موعد من الله ـ عزّ وجل ـ لرسوله ـ ﷺ ـ أي: مثل ذلك الاقتصاص ونحو ما اقتصصنا عليك قصة موسى وفرعون، نقصّ عليك من سائر أخبار الأمم وقصصهم وأحوالهم، تكثيراً لبيناتك؛ وزيادة في معجزاتك، وليعتبر السامع ويزداد المستبصر في دينه بصيرة، وتتأكد الحجة على من عاند

= بالمكان: أقام به، وأثوى به: لغة فيه، ويستعمل متعدياً أيضاً. يقول: إنه قطع السفر، وأقام بربع قتيلة، ووجد ليله قصيراً لتزوره بالوصال، أو امتنع من السفر لذلك، فمضى الليل على الأول، أو مضت الليلة على الثاني. وجزالة المعنى تشهد له. وأخلف الموعد من قتيلة، أي: وجده خلفاً، فسافر كما كان إلى حاجته، واستعار الحبل للوداد أو للطمع فيه على طريق التصريحية والخلق ترشيح، أي: يئس من مودته، وكان الحبل أو العاشق بحالة حسنة، هي أنه لن ينكدا، أي لن يتنغص، ولن يتكدر، ولن يتعسر شأنه، وزوال النعمة بعد نوالها يشق على النفس، وخلق ـ بالضم ـ فهو خلق، كحسن، وهو في الأصل مصدر. وينكد كيتعب.

ينظر ديوانه ص ٢٧٧، ولسان العرب: ٩/ ٧٤، ١٤/ ١٢٦، ومقاييس اللغة: ١/ ٣٩٣، ومجمل اللغة: ٢/ ٢١٣، وديوان الأدب: ٤/ ١٠٩، وتهذيب اللغة: ١٥/ ١٦٧، وتاج العروس. (خلف)، (سوى).

وكابر، وأن هذا الذكر الذي آتيناك، يعني: القرآن، مشتملاً على هذه الأقاصيص والأخبار الحقيقة بالتفكر والاعتبار؛ لذكر عظيم وقرآن كريم، فيه النجاة والسعادة لمن أقبل عليه، ومن أعرض عنه فقد هلك وشقي، يريد بالوزر: العقوبة الثقيلة الباهظة؛ سماها وزراً تشبيهاً في ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها بالحمل الذي يفدح[1] الحامل، وينقض ظهره، ويلقى عليه بهره[2]، أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم، وقرئ: «يُحمَّل» وجمع، ﴿خَٰلِدِينَ﴾ على المعنى؛ لأنّ «من» معلق متناول لغير معرض واحد، وتوحيد الضمير في أعرض وما بعده للحمل على اللفظ؛ ونحوه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [الجن: ٢٣]، ﴿فِيهِۖ﴾ أي: في ذلك الوزر، أو في احتماله، ﴿سَآءَ﴾: في حكم بئس، والضمير الذي فيه يجب أن يكون مبهماً يفسره؛ ﴿حِمۡلٗا﴾: والمخصوص بالذم محذوف؛ لدلالة الوزر السابق عليه، تقديره: ساء حملاً وزرهم، كما حذف في قوله تعالى: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]: أيوب هو المخصوص بالمدح، ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ أي: وساءت مصيرا جهنم.

فإن قلت: اللام في: (لهم) ما هي؟ وبم تتعلق؟

قلت: هي للبيان، كما في (هيت لك).

فإن قلت: ما أنكرت[3] أن يكون في ساء ضمير الوزر؟

قلت: لا يصح أن يكون في ساء وحكمه حكم بئس ضمير شيء بعينه غير مبهم.

فإن قلت: فلا يكن ساء الذي حكمه حكم بئس، وليكن ساء الذي منه قوله تعالى: ﴿سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾. بمعنى: أهم وأحزن؟

قلت: كفاك صادًا عنه أن يؤول كلام الله إلى قولك: وأحزن الوزر لهم يوم القيامة حملاً؛ وذلك بعد أن تخرج عن عهدة هذا اللام وعهدة هذا المنصوب.

﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ١٠٢ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ١٠٣ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ١٠٤﴾

أسند النفخ إلى الآمر به فيمن قرأ: «ننفخ»: بالنون، أو لأن الملائكة المقربين وإسرافيل منهم بالمنزلة التي هم بها من رب العزة، فصح لكرامتهم عليه وقربهم منه أن يسند ما يتولونه إلى ذاته تعالى، وقرئ: «ينفخ»: بلفظ ما لم يسم فاعله، و«ينفخ»،

---

(١) قوله «يفدح الحامل» أي يثقله. أفاده الصحاح. (ع)
(٢) قوله «بهره» أي غلبته. أفاده الصحاح. (ع)
(٣) قوله «ما أنكرت» لعله «لم أنكرت». (ع)

و«يحشر»: بالياء المفتوحة على الغيبة والضمير لله ـ عز وجل ـ أو لإسرافيل ـ عليه السلام ـ وأما يحشر المجرمون فلم يقرأ به إلا الحسن، وقرئ: (في الصور): بفتح الواو جمع صورة، وفي الصور: قولان، أحدهما: أنه بمعنى: الصور، وهذه القراءة. تدل عليه، والثاني: أنه القرن، قيل: في الزرق قولان.

أحدهما: أن الزرقة أبغض شيء من ألوان العيون إلى العرب؛ لأنّ الروم أعداؤهم وهم ٢/١٧أ زرق العيون؛ ولذلك قالوا في صفة العدوّ: أسود الكبد، أصهب السبال، أزرق العين.

والثاني: أنّ المراد: العمي؛ لأنّ حدقة من يذهب نور بصره تزراق، تخافتهم لما يملأ صدورهم من الرعب والهول، يستقصرون مدّة لبثهم في الدنيا: إما لما يعاينون من الشدائد التي تذكرهم أيام النعمة والسرور فيتأسفون عليها ويصفونها بالقصر؛ لأنّ أيام السرور قصار، وإما لأنها ذهبت عنهم وتقضت، والذاهب وإن طالت مدّته قصير بالانتهاء، ومنه توقيع عبد الله بن المعتز تحت: «أطال الله بقاءك»: «كفى بالانتهاء قصرا» وإما لاستطالتهم الآخرة، وأنها أبد سرمد يستقصر إليها عمر الدنيا، ويتقال لبث أهلها فيها بالقياس إلى لبثهم في الآخرة، وقد استرجح الله قول من يكون أشدّ تقاولاً منهم في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾؛ ونحوه قوله تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المؤمنون: ١١٢ ـ ١١٣]، وقيل: المراد لبثهم في القبور، ويعضده قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الروم: ٥٥]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦].

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾

﴿يَنسِفُهَا﴾: يجعلها كالرمل، ثم يرسل عليها الرياح فتفرّقها كما يذرى الطعام، ﴿فَيَذَرُهَا﴾[1]، أي: فيذر مقارّها ومراكزها، أو يجعل الضمير للأرض، وإن لم يجر لها ذكر؛ كقوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

فإن قلت: قد فرّقوا بين العوج والعوج، فقالوا: العوج بالكسر: في المعاني، والعوج بالفتح: في الأعيان، والأرض عين، فكيف صح فيها المكسور العين؟

---

(١) قوله تعالى ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾﴾ في الصحاح: أن كلا من القاع والصفصف بمعنى المستوى من الأرض، فكأن الصفصف تأكيد. (ع)

قلت: اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع في وصف الأرض بالاستواء والملاسة، ونفي الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون؛ وذلك أنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسوّيتها وبالغت في التسوية على عينك وعيون البصراء من الفلاحة، واتفقتم على أنه لم يبق فيها اعوجاج قط، ثم استطلعت رأي المهندس فيها وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية؛ لعثر فيها على عوج في غير موضع، لا يدرك ذلك بحاسة البصر ولكن بالقياس الهندسي، فنفى الله ـ عزّ وعلا ـ ذلك العوج الذي دقّ ولطف عن الإدراك، اللهمّ إلا بالقياس الذي يعرفه صاحب التقدير والهندسة؛ وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحق بالمعاني، فقيل فيه: عوج بالكسر، الأمت: النتوّ اليسير، يقال: مدّ حبله حتى ما فيه أمت.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾

أضاف اليوم إلى وقت نسف الجبال في قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ نسفت، ويجوز أن يكون بدلاً بعد بدل من يوم القيامة[1]، والمراد: الداعي إلى المحشر، قالوا: هو إسرافيل قائماً على صخرة بيت المقدس يدعو الناس، فيقبلون من كل أوب إلى صوبه لا يعدلون، ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ أي: لا يعوجّ له مدعوّ، بل يستوون إليه من غير انحراف متبعين لصوته، أي: خفضت الأصوات من شدة الفزع وخفتت[2]، ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾: وهو الركز الخفي، ومنه الحروف المهموسة، وقيل: هو من همس الإبل وهو صوت أخفافها إذا مشت، أي: لا تسمع إلا خفق الأقدام ونقلها إلى المحشر، ﴿مَنْ﴾: يصلح أن يكون مرفوعاً ومنصوباً، فالرفع على البدل من الشفاعة بتقدير حذف المضاف، أي: لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من، ﴿أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾، والنصب على المفعولية، ومعنى أذن له: ﴿وَرَضِىَ لَهُۥ﴾: لأجله، أي: أذن للشافع ورضي قوله لأجله، ونحو هذه اللام اللام في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١].

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾

أي يعلم ما تقدّمهم من الأحوال وما يستقبلونه، ولا يحيطون بمعلوماته علما.

---

(١) قال السمين الحلبي: وفيه نظر للفصل الكبير وأيضاً فإنه يبقى يتبعون غير مرتبط بما قبله، وبه يفوت المعنى والتقدير يوم إذا نسفت الجبال. انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله «وخفتت» في الصحاح «خفت الصوت» سكن. (ع)

﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾

المراد بالوجوه: وجوه العصاة، وأنهم إذا عاينوا ـ يوم القيامة ـ الخيبة والشقوة وسوء الحساب، صارت وجوههم عانية، أي: ذليلة خاشعة، مثل وجوه العناة وهم الأسارى؛ ونحوه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الملك: ٢٧]، ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القيامة: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ [طه: ١١١]، وما بعده اعتراض؛ كقولك: خابوا وخسروا، وكلّ من ظلم فهو خائب خاسر.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾

الظلم: أن يأخذ من صاحبه فوق حقه، والهضم: أن يكسر من حق أخيه فلا يوفيه له، كصفة المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ويسترجحون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون، أي: فلا يخاف جزاء ظلم ولا هضم؛ لأنه لم يظلم ولم يهضم، وقرئ: «فلا يخف»: على النهي.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: عطف على (كذلك نقص)، أي: ومثل ذلك الإنزال، وكما أنزلنا عليك هؤلاء الآيات المضمنة للوعيد[1] أنزلنا القرآن كله على هذه الوتيرة، مكرّرين فيه آيات الوعيد، ليكونوا بحيث يراد منهم ترك المعاصي أو فعل الخير والطاعة، والذكر ـ كما ذكرنا ـ: يطلق على الطاعة والعبادة، وقرئ ٢/١٧ب: نحدث وتحدث، بالنون والتاء، أي: تحدث أنت، وسكن بعضهم الثاء للتخفيف؛ كما في: [من السريع]

فَالْيَوْمَ أَشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ ... إِثْمًا مِنَ اللّٰهِ وَلاَ وَاغِلِ[2]

---

(١) قال محمود: «معناه وكما أنزلنا عليك هذه الآيات المضمنة للوعيد... إلخ» قال أحمد: الصواب في تفسيرها: ليكونوا على رجاء التقوى والتذكر، وإلا فلو أراد الله من جميعهم التقوى لوقعت. وقد تقدمت أمثالها. والعجب أنه نقل عن سيبويه في تفسير لعل أول هذه السورة عند قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أن معناه: كونا على رجائكما، ثم رجع عن ذلك ههنا: لأن المعتقد الفاسد يحذوه إلى هذا التأويل الباطل، والله الموفق.

(٢)
حلت لي الخمر وكنت امرءًا ... عن شربها في شغل شاغل
اليوم أشربْ غير مستحقب ... إثــمّــا مــن الله ولا واغــل

لامرىء القيس، كان حلف لا يشرب الخمر حتى يقتل بني أسد الذين قتلوا أباه حجرا، فلما قتل جماعة منهم قال: حلت لي الخمر بعد أن كانت حراما علي وكنت في شغل شاغل لي عن شربها، فاليوم حين أخذت الثأر أشرب، وكان حقه الرفع لعدم الجازم، فسكن تخفيفاً للوزن. والمستحقب =

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾: استعظام له ولما يصرف عليه عباده من أوامره ونواهيه، ووعده ووعيده، والإدارة بين ثوابه وعقابه على حسب أعمالهم، وغير ذلك مما يجري عليه أمر ملكوته، ولما ذكر القرآن وإنزاله قال على سبيل الاستطراد: وإذا لقنك جبريل ما يوحى إليك من القرآن، فتأنّ عليك ريثما يسمعك ويفهمك، ثم أقبل عليه بالتحفظ بعد ذلك، ولا تكن قراءتك مساوقة لقراءته؛ ونحوه قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ [القيامة: ١٦]، وقيل: معناه: لا تبلغ ما كان منه مجملاً حتى يأتيك البيان، وقرئ: حتى تقضى إليك وحيه، وقوله تعالى: ﴿رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾: متضمن للتواضع لله ـ تعالى ـ والشكر له عندما علم من ترتيب التعلم، أي: علمتني يا رب لطيفة في باب التعلم وأدباً جميلاً ما كان عندي، فزدني علماً إلى علم؛ فإنّ لك في كل شيء حكمة وعلماً، وقيل: ما أمر الله رسوله بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾

يقال في أوامر الملوك ووصاياهم: تقدّم الملك إلى فلان وأوعز إليه، وعزم عليه، وعهد إليه، عطف الله ـ سبحانه ـ قصة آدم على قوله: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [طه: ١١٣]، والمعنى: أقسم قسماً: لقد أمرنا أباهم آدم ووصيناه ألاّ يقرب الشجرة، وتوعدناه بالدخول في جملة الظالمين إن قربها؛ وذلك من قبل وجودهم ومن قبل أن نتوعدهم، فخالف إلى ما نهي عنه، وتوعد في ارتكابه مخالفتهم، ولم يلتفت إلى الوعيد كما لا يلتفتون، كأنه يقول: إنّ أساس أمر بني آدم على ذلك، وعرقهم راسخ فيه.

فإن قلت: ما المراد بالنسيان؟

= للشيء: الحامل له على ظهره... ومنه الحقيبة، فشبه الإثم بالشيء المحمول لمشقته على النفس، والاستحقاب تخييل. والواغل: الداخل على الشاربين من غير أن يدعوه، أي: فاليوم أشرب ما شئت حال كوني غير متحمل ذنباً من الله. حيث بررت في قسمي، ولا متطفل على الشاربين.

ينظر: ديوانه ١٢٢، وإصلاح المنطق ٢٤٥، والأصمعيات ١٣٠، جمهرة اللغة ٩٦٢، وحماسة البحتري ٣٦، خزانة الأدب ٤/ ١٠٦ و٨/ ٣٥٠ و٣٥٤ و٣٥٥، والدرر ١/ ١٧٥، ورصف المباني ٣٢٧، شرح التصريح ١/ ٨٨، شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٦١٢ و١١٧٦، شرح شذور الذهب ٢٧٦، شرح شواهد الإيضاح ٢٥٦، شرح المفصل ١/ ٤٨، الشعر والشعراء ١/ ١٢٢، والكتاب ٤/ ٢٠٤، ولسان العرب [حقب]، [دلك]، المحتسب ١/ ١٥، ١١٠، الأشباه والنظائر ١/ ٦٦، والاشتقاق ٣٣٧، والخصائص ١/ ٧٤ و٢/ ٣١٧، والمقرب ٢/ ٢٠٥، همع الهوامع ١/ ٥٤. الدر المصون ١/ ٢٢٧ فتح القدير ٢/ ٥٠٧.

قلت: يجوز أن يراد النسيان الذي هو نقيض الذكر، وأنه لم يعن بالوصية العناية الصادقة، ولم يستوثق منها بعقد القلب عليها وضبط النفس، حتى تولد من ذلك النسيان، وأن يراد الترك وأنه ترك ما وصي به من الاحتراس عن الشجرة وأكل ثمرتها، وقرئ: «فنسي»، أي: نساه الشيطان، العزم: التصميم والمضيّ على ترك الأكل، وأن يتصلب في ذلك تصلباً يؤيس الشيطان من التسويل له، والوجود: يجوز أن يكون بمعنى: العلم، ومفعولاه: (له عزما)، وأن يكون نقيض العدم كأنه قال: وعدمنا له عزماً.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾

﴿إذ﴾: منصوب بمضمر، أي: واذكر وقت ما جرى عليه من معاداة إبليس ووسوسته إليه وتزيينه له الأكل من الشجرة، وطاعته له بعد ما تقدّمت معه النصيحة والموعظة البليغة والتحذير من كيده، حتى يتبين لك أنه لم يكن من أولي العزم والثبات.

فإن قلت: إبليس كان جنياً بدليل قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]، فمن أين تناوله الأمر وهو للملائكة خاصة؟

قلت: كان في صحبتهم، وكان يعبد الله ـ تعالى ـ عبادتهم، فلما أمروا بالسجود لآدم والتواضع له؛ كرامة له، كان الجني الذي معهم أجدر بأن يتواضع، كما لو قام لمقبل على المجلس علية أهله وسراتهم، كان القيام على واحد بينهم هو دونهم في المنزلة أوجب، حتى إن لم يقم عنف، وقيل له: قد قام فلان وفلان، فمن أنت حتى تترفع عن القيام؟

فإن قلت: فكيف صحّ استثناؤه، وهو جني عن الملائكة؟

قلت: عمل على حكم التغليب في إطلاق اسم الملائكة عليهم وعليه، فأخرج الاستثناء على ذلك؛ كقولك: خرجوا إلا فلانة، لامرأة بين الرجال، ﴿وَأَبَىٰ﴾: جملة مستأنفة، كأنه جواب قائل قال: لم لم يسجد؟ والوجه ألاّ يقدّر له مفعول، وهو السجود المدلول عليه بقوله: ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ وأن يكون معناه أظهر الإباء وتوقف وتثبط.

﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾

﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا﴾: فلا يكونن سبباً لإخراجكما؛ وإنما أسند إلى آدم وحده فعل الشقاء دون حواء بعد إشراكهما في الخروج؛ لأنّ في ضمن شقاء الرجل، وهو قيم أهله وأميرهم شقاءهم، كما أنّ في ضمن سعادته سعادتهم، فاختصر الكلام بإسناده إليه دونها، مع المحافظة على الفاصلة، أو أريد بالشقاء: التعب في طلب القوت؛ وذلك معصوب برأس الرجل وهو راجع إليه، وروي أنه أهبط إلى آدم ثور أحمر، فكان يحرث عليه ويمسح العرق من جبينه.

﴿فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾

قرئ: (وإنك): بالكسر والفتح، ووجه الفتح العطف على (أن لا تجوع).

فإن قلت: إنّ لا تدخل على أن، فلا يقال: إنّ أن زيداً منطلق، والواو نائبة عن إنّ وقائمة مقامها فلم أدخلت عليها؟

قلت: الواو لم توضع لتكون أبداً نائبة عن إنّ؛ إنما هي نائبة عن كل عامل، فلما لم تكن حرفاً موضوعاً للتحقيق خاصة ـ كإن ـ لم يمتنع اجتماعهما كما امتنع اجتماع إنّ وأن.

الشبع والريّ والكسوة والكنّ: هي الأقطاب التي يدور عليها كفاف الإنسان[1]، فذكره استجماعها له في الجنة، وأنه مكفي لا يحتاج إلى كفاية كاف ولا إلى كسب كاسب كما يحتاج إلى ذلك أهل الدنيا، وذكرها بلفظ النفي لنقائضها التي هي الجوع والعري والظمأ والضحو[2]؛ ليطرق سمعه بأسامي أصناف الشقوة التي حذره منها، حتى يتحامى السبب الموقع فيها كراهة لها.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾

---

(١) قال محمود: «ذكر تعالى الأصناف التي بها قوام الإنسان... إلخ» قال أحمد: تنبيه حسن، وفي الآية سر بديع من البلاغة يسمى قطع النظير عن النظير، وذلك أنه قطع الظمأ عن الجوع والضحو عن الكسوة، مع ما بينهما من التناسب. والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها، ولو قرن كلا بشكله لتوهم المعدودات نعمة واحدة، وقد رمق أهل البلاغة سماء هذا المعنى قديماً وحديثاً فقال الكندي الأول [من الطويل]:

كأني لم أركب جواداً للذة ... ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم أرشف الرزق الروي ولم أقل ... لخيلي كري كرة بعد إجفال

فقطع ركوب الجواد عن قوله «لخيلي كري كرة» وقطع تبطن الكاعب عن ترشف الكأس مع التناسب، وغرضه أن يعدد ملاذه ومفاخره ويكثرها، وتبعه الكندي الآخر فقال [من الطويل]:

وقفت وما في الموت شكٌ لواقف ... كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ... ووجهك وضاح وثغرك باسم

فاعترضه سيف الدولة بأنه ليس فيه قطع الشيء عن نظيره، ولكنه على فطنته قصر فهمه عما طالت إليه يد أبي الطيب من هذا المعنى الطائل البديع، على أن في هذه الآية سراً لذلك زائداً على ما ذكر، وهو أن قصد تناسب الفواصل، ولو قرن الظمأ بالجوع فقيل: إن لك أن لا تجوع فيها ولا تظمأ، لانتثر سلك رءوس الآي، وأحسن به منتظماً، والله أعلم.

(٢) قوله «والضحو» الذي في الصحاح: ضحيت للشمس ضحا ـ ممدود ـ إذا برزت الشمس لها، وضحيت ـ بالفتح ـ مثله. (ع)

فإن قلت: كيف ٢/١٨أ عدى وسوس تارة باللام في قوله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، وأخرى بإلى؟

قلت: وسوسة الشيطان كولولة الثكلى(١)، ووعوعة الذئب، ووقوقة الدجاجة، في أنها حكايات للأصوات وحكمها حكم صوت وأجرس، ومنه: وسوس المبرسم، وهو موسوس بالكسر، والفتح: لحن؛ وأنشد ابن الأعرابي: [من الرجز]

وَسْوَسَ يَدعُو مُخلِصاً رَبَّ الفَلَق(٢)

فإذا قلت: وسوس له، فمعناه لأجله؛ كقوله: [من الرجز]

أَجرِسْ لَهَا يَا ابنَ أَبِي كِبَاشِ(٣)

ومعنى «وسوس إليه»: أنهى إليه الوسوسة؛ كقولك: حدّث إليه، وأسرّ إليه، أضاف الشجرة إلى الخلد وهو الخلود؛ لأن من أكل منها خلد بزعمه، كما قيل لحيزوم: فرس

---

(١) قوله «كولولة الثكلى» أي الحزينة. (ع)

(٢) وسوس يدعو مخلصا رب الفلق   سرًّا وقد أوّن تأوين العقق
في الزرب لو يمضغ شربًا ما بصق
لرؤبة، يصف قانصا. وسوس: تكلم في نفسه، يدعو لله مخلصاً أنه يظفره بالصيد، وقوله «سرا» ساقه مساق الظرف للتوكيد، أي تعلق بوسوس، وللتأسيس إن تعلق بيدعو، وتكون الجملة حالية مبينة للوسوسة. وقد أونَ أي: الحمير الوحشية، والجملة أيضاً حالية، والتأوين: امتلاء الجنين من الأون، وهو جانب الخرج الممتلىء. والأونان الجانبان الممتلئان. والعقق: الحوامل، واحده عقوق كعروس، وقيل: هو العقوق، أي امتلأت بطونهن ماء لكثرة شربهن كامتلاء بطون الحوامل في الزرب، حال من ضمير القانص. والزرب والزربة: قترته التي يكمن فيها وانزرب القانص: دخل الزرب. وقوله «لو يمضغ» في معنى الحال أيضاً، أي: ساكناً بحيث لو يمضغ شربا، أي: لو يلوك بفمه مقداراً من مائه وهو الريق، لم يبصق لئلا يسمع الصيد صوته، وأصل الشرب: النصيب من الماء، استعاره لما يجتمع بفمه من الريق، وبين الزرب والشرب الجناس المضارع.
ينظر البيت في ديوانه ص ١٠٨، ولسان العرب (وسس) (لسق)، (أون)، (مأن)، وتهذيب اللغة ١/ ٦٠، ١٣/ ١٣٦، ١٥/ ٥٤٥، وتاج العروس (وطس)، (عقق)، (فلق)، (أون)، وديوان الأدب ٤/ ٢٢٩، وبلا نسبة في لسان العرب (عقق)، (وجه)، وكتاب العين ٨/ ٤٠٣، ومقاييس اللغة ٣/ ٣٨٥، ٤/ ٧، ومجمل اللغة ٣/ ٣٠١، والمخصص ١١/ ٩٣، وتاج العروس (وجه).

(٣) أجرس لها يا ابن أبي كباش   فما لها الليلة من أنفاش
غير السرى وسائق نجاش
«أجرس» بقطع الهمزة وبالسين المهملة، أي: صوت واحد للإبل في السير. فمالها في هذه الليلة أنفاش، أي: أطلاق في المرعى. والسرى: سير الليل. ونجشت الإبل: جمعتها بعد تفرق. ونجاش: صيغة مبالغة، أي: ليس لها رعي، بل سير شديد. وروي «اجرش» بوصل الهمزة والشين المشالة، وهو بمعناه هنا. والجرس ـ بالمهملة ـ: الصوت الخفي، وبالمشالة: صوت المشط في الشعر. وما شابه ذلك. =

الحياة؛ لأنّ من باشر أثره حيي، ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾: دليل على قراءة الحسن بن علي وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ: (إلا أن تكونا ملكين): بالكسر.

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾

«طفق يفعل كذا» مثل: جعل يفعل، وأخذ، وأنشأ، وحكمها حكم كاد في وقوع الخبر فعلاً مضارعاً، وبينها وبينه مسافة قصيرة، هي: للشروع في أوّل الأمر، وكاد لمشارفته والدنوّ منه، قرئ: ﴿يَخْصِّفَانِ﴾: للتكثير والتكرير، من خصف النعل وهو أن يخرز عليها الخصاف، أي: يلزقان الورق بسوآتهما للتستر وهو ورق التين، وقيل: كان مدوراً، فصار على هذا الشكل من تحت أصابعهما، وقيل: كان لباسهما الظفر، فلما أصابا الخطيئة، نزع عنهما وتركت هذه البقايا في أطراف الأصابع، عن ابن عباس: لا شبهة في أنّ آدم لم يمتثل ما رسم الله له، وتخطى فيه ساحة الطاعة، وذلك هو العصيان، ولما عصى خرج فعله من أن يكون رشداً وخيراً، فكان غيًا لا محالة؛ لأنّ الغي خلاف الرشد، ولكن قوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾: بهذا الإطلاق وبهذا التصريح، وحيث لم يقل: وزل آدم وأخطأ وما أشبه ذلك، مما يعبر به عن الزلات والفرطات: فيه لطف بالمكلفين ومزجرة بليغة وموعظة كافة، وكأنه قيل لهم: انظروا واعتبروا كيف نعيت على النبي المعصوم حبيب الله الذي لا يجوز عليه إلا اقتراف الصغيرة غير المنفرة زلته بهذه الغلظة وبهذا اللفظ الشنيع، فلا تتهاونوا بما يفرط منكم من السيئات والصغائر، فضلاً أن تجسروا على التورّط في الكبائر، وعن بعضهم: (فغوى): فبشم[1] من كثرة الأكل، وهذا ـ وإن صح على لغة من يقلب الياء المكسورة ما قبلها ألفاً فيقول في «فني، وبقي»: «فنا، وبقا»، وهم بنو طيّ ؛ تفسير خبيث[2].

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾

فإن قلت: ما معنى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾؟

قلت: ثم قبله بعد التوبة وقرّبه إليه، من جبى إليّ كذا فاجتبيته؛ ونظيره: جليت عليّ

= ينظر: لسان العرب (جرس)، (نجش)، (نفش)، وتهذيب اللغة ١٠/ ٥٤٢، ١١/ ٣٧٧، وتاج العروس (جرس)، ١٧/ ٤٢١.

(١) قوله «فبشم من كثرة الأكل» في الصحاح «البشم» التخمة. (ع)

(٢) قال السمين الحلبي: قلت كأنه لم يطلع على أنه قرئ بكسر الواو ولو اطلع عليها لردها وقد فسر القائل بهذه المقالة من نسبة آدم عليه السلام إلى المغني. انتهى. الدر المصون.

العروس فاجتليتها، ومنه قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، أي: هلا جبيت إليك فاجتبيتها، وأصل الكلمة: الجمع، ويقولون: اجتبت الفرس نفسها إذا اجتمعت نفسها راجعة بعد النفار، و﴿هَدَىٰ﴾ أي: وفقه لحفظ التوبة وغيره من أسباب العصمة والتقوى.

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾

لما كان آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ أصلي البشر، والسببين اللذين منهما نشئوا وتفرعوا: جعلا كأنهما البشر في أنفسهما، فخوطبا مخاطبتهم، فقيل: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾: على لفظ الجماعة؛ ونظيره إسنادهم الفعل إلى السبب، وهو في الحقيقة للمسبب، ﴿هُدًى﴾: كتاب وشريعة، وعن ابن عباس: ضمن الله لمن اتبع القرآن ألاّ يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم تلا قوله: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾، والمعنى: أنّ الشقاء في الآخرة هو عقاب من ضلّ في الدنيا عن طريق الدين فمن اتبع كتاب الله وامتثل أوامره وانتهى عن نواهيه نجا من الضلال ومن عقابه.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾

الضنك: مصدر يستوي في الوصف به المذكر والمؤنث، وقرئ: ﴿ضنكى﴾: على فعلى، ومعنى ذلك: أن مع الدين التسليم والقناعة والتوكل على الله وعلى قسمته، فصاحبه ينفق ما رزقه بسماح وسهولة، فيعيش عيشاً رافعاً؛ كما قال عز وجل: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، والمعرض عن الدين، مستول عليه الحرص الذي لا يزال يطمح به إلى الازدياد من الدنيا، مسلط عليه الشح الذي يقبض يده عن الإنفاق، فعيشه ضنك وحاله مظلمة، كما قال بعض المتصوّفة: لا يعرض أحد عن ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته وتشوّش عليه رزقه، ومن الكفرة من ضرب الله عليه الذلة والمسكنة؛ لكفره، قال الله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] وقال: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ [نوح: ١١]، وقال: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ٢/ ١٨ب ﴿١٦﴾﴾ [الجن: ١٦]، وعن

الحسن: هو الضريع والزقوم في النار، وعن أبي سعيد الخدري عذاب القبر، وقرئ: (ونحشره): بالجزم، عطفاً على محل: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾؛ لأنه جواب الشرط، وقرئ: «ونحشره»: بسكون الهاء على لفظ الوقف، وهذا مثل قوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧]، وكما فسر الرزق بالعمى، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك فعلت أنت، ثم فسر بأن آياتنا أتتك واضحة مستنيرة، فلم تنظر إليها بعين المعتبر ولم تتبصر، وتركتها وعميت عنها، فكذلك اليوم نتركك على عماك ولا نزيل غطاءه عن عينيك.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾﴾

لما توعد المعرض عن ذكره بعقوبتين: المعيشة الضنك في الدنيا، وحشره أعمى في الآخرة ـ ختم آيات الوعيد بقوله: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٧]، كأنه قال: وللحشر على العمى الذي لا يزول أبداً أشدّ من ضيق العيش المنقضي، أو أراد: ولتركنا إياه في العمى أشدّ وأبقى من تركه لآياتنا.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾

فاعل ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ﴾: الجملة بعده يريد: ألم يهد لهم هذا بمعناه ومضمونه؛ ونظيره قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الصافات: ٧٨ ـ ٧٩]، أي: تركنا عليه هذا الكلام[1]، ويجوز أن يكون فيه ضمير الله أو الرسول؛ ويدل عليه القراءة بالنون، وقرئ: ﴿يَمْشُونَ﴾ يريد: أنّ قريشاً يتقلبون في بلاد عاد وثمود ويمشون، ﴿فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾: ويعاينون آثار هلاكهم.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾

الكلمة السابقة: هي العدة بتأخير جزائهم إلى الآخرة، يقول: لولا هذه العدة لكان مثل إهلاكنا عاداً وثموداً لازماً لهؤلاء الكفرة، واللزام: إما مصدر لازم وصف به، وإما فعال بمعنى: مفعل، أي: ملزم، كأنه آلة اللزوم لفرط لزومه، كما قالوا: لزاز خصم، ﴿وَأَجَلٌ

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: فكون الجملة فاعل يهد هو مذهب كوفي، وأما تشبيهه وتنظيره بقوله: «وتركنا عليه في الآخرين» «سلام على نوح في العالمين» فإن تركنا معناه معنى القول فحكيت به الجملة كأنه قيل وقلنا عليه وأطلقنا عليه هذا اللفظ والجملة تحكي بمعنى القول كما تحكي بالقول. انتهى. الدر المصون.

﴿مُّسَمًّى﴾: لا يخلو من أن يكون معطوفا على ﴿كَلِمَةٌ﴾، أو على الضمير في: ﴿كان﴾، أي: لكان الأخذ العاجل وأجل مسمى لازمين لهم كما كانا لازمين لعاد وثمود، ولم ينفرد الأجل المسمى دون الأخذ العاجل.

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾

﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾: في موضع الحال، أي: وأنت حامد لربك على أن وفقك للتسبيح وأعانك عليه، والمراد بالتسبيح: الصلاة، أو على ظاهره قدم الفعل على الأوقات أوّلاً، والأوقات على الفعل آخراً، فكأنه قال: صل لله قبل طلوع الشمس، يعني: الفجر، وقبل غروبها، يعني: الظهر والعصر؛ لأنهما واقعتان في النصف الأخير من النهار بين زوال الشمس وغروبها، وتعمد آناء الليل وأطراف النهار مختصًا لهما بصلاتك؛ وذلك أن أفضل الذكر ما كان بالليل، لاجتماع القلب وهدو الرجل والخلو بالرب، وقال الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾﴾ [المزمل: ٦]، وقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ [الزمر: ٩]، ولأنّ الليل وقت السكوت والراحة، فإذا صرف إلى العبادة، كانت على النفس أشد وأشق، وللبدن أتعب وأنصب، فكانت أدخل في معنى التكليف وأفضل عند الله، وقد تناول التسبيح في آناء الليل صلاة العتمة، وفي أطراف النهار صلاة المغرب وصلاة الفجر على التكرار؛ إرادة الاختصاص، كما اختصت في قوله: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى» عن بعض المفسرين.

فإن قلت: ما وجه قوله: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ على الجمع؛ وإنما هما طرفان كما قال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾؟

قلت: الوجه أمن الإلباس، وفي التثنية: زيادة بيان، ونظير مجيء الأمرين في الآيتين: مجيئهما في قوله [من السريع أو الرجز]

ظَهْرَاهُمَا مِثْلُ ظُهُورِ التُّرْسَيْنِ[1]

وقرئ: وأطراف النهار، عطفاً على آناء الليل، ولعل للمخاطب، أي: اذكر الله في هذه الأوقات؛ طمعاً ورجاء أن تنال عند الله ما به ترضى نفسك ويسر قلبك، وقرئ: «ترضى»، أي: يرضيك ربك.

---

(١) ومهمهين قذفين مرتين ظهراهما مثل ظهور الترسين
جبتهما بالنعت لا بالنعتين
لخطام المجاشعي. وقيل: لهميان بن قحافة. والمهمه: المفازة. والقذف ـ بالتحريك ـ: الذي =

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي: نظر عينيك، ومدّ النظر: تطويله، وألاّ يكاد يرده؛ استحساناً للمنظور إليه وإعجاباً به، وتمنياً أن يكون له، كما فعل نظارة قارون حين قالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩]، حتى واجههم أولو العلم والإيمان بـ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [القصص: ٨٠]، وفيه أن النظر غير الممدود معفو عنه؛ وذلك مثل نظر من باده الشيء بالنظر ثم غض الطرف، ولما كان النظر إلى الزخارف كالمركوز في الطباع، وأنّ من أبصر منها شيئاً أحب أن يمدّ إليه نظره ويملأ منه عينيه، قيل: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي: لا تفعل ما أنت معتاد له وضار به، ولقد شدّد العلماء من أهل التقوى في وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة وعدد الفسقة في اللباس والمراكب وغير ذلك؛ لأنهم إنما اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة، فالناظر إليها محصل لغرضهم، وكالمغري لهم على اتخاذها، ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾: أصنافاً من الكفرة، ويجوز أن ينتصب حالاً من هاء الضمير، والفعل واقع على: (منهم): كأنه قال: إلى الذي متعنا به وهو أصناف بعضهم وناساً ٢/ ١٩أ منهم.

فإن قلت: علام انتصب ﴿زَهْرَةَ﴾؟

قلت: على أحد أربعة أوجه: على الذم، وهو النصب على الاختصاص، وعلى

= يقذف سالكه فلا يمكث فيه أحد. وقيل: البعيد. والمرت ـ بالسكون ـ: القفر لا ماء فيه ولا نبات. والترس: حيوان ناتىء الظهر. وثنى ظهراهما على الأصل، وجمع فيما بعد لأمن اللبس، ولأنه ربما كره اجتماع تثنيتين، لا سيما عند تابع التثنية كما هنا. وقال النحاة: كل مثنى في المعنى مضاف إلى متضمنه، يختار في لفظه الجمع لتعدد معناه وكراهة اجتماع تثنيتين في اللفظ. ويجوز مجيئه على الأصل كما هنا. ويجوز إفراده كقوله [من الطويل]:

حمامة بطن الواديين ترنمي ....

والجواب: القطع. والنعت: الوصف، ويروى: «بالسمت لا بالسمتين» والسمت: الهيئة والقصد والجهة والطريق والمراد أنهما وصفا، أو ذكرت هيأتهما له مرة واحدة. يقول: رب موضعين قفرين لا أنيس فيهما، لهما ظهران مرتفعان، كظهري الترسين، قطعتهما بالسير بنعت واحد، لا بوصفهما لي مرتين أو ثلاثة كغيري. ويجوز أن المعنى بذكر نعت واحد من نعوتها، لا بذكر نعتين، فالنعت بمعنى الصفة القائمة بالشيء. وفي الكلام دلالة على شجاعته وحذقه.

ينظر: خزانة الأدب ٢/ ٣١٤، والدرر ١/ ١١٦، ١١٨، ١٦٦، وشرح المفصّل ٤/ ١٥٦، والكتاب ٢/ ٤٨، ولسان العرب (مرت)، وله أو لهميان في الكتاب ٣/ ٦٢٢، والتنبيه والإيضاح ١/ ١٧٣، وبلا نسبة في خزانة الأدب ٤/ ٣٠٢، ٧/ ٥٣٩، ٥٧٢، وشرح الأشموني ٣/ ٤٠٤، وشرح شافية ابن الحاجب ١/ ١٩٤، وهمع الهوامع ١/ ٤٠، ٥١، والمخصص ٩/ ٧.

تضمين: (متعنا) معنى: أعطينا وخوّلنا، وكونه مفعولاً ثانياً له، وعلى إبداله من محل الجار والمجرور، وعلى إبداله من أزواجاً، على تقدير ذوي زهرة.

فإن قلت: ما معنى الزهرة فيمن حرّك(١).

قلت: معنى الزهرة بعينه وهو الزينة والبهجة، كما جاء في الجهرة الجهرة، وقرئ: «أرنا الله جهرة»، أن تكون جمع زاهر، وصفاً لهم بأنهم زاهرو هذه الدنيا، لصفاء ألوانهم مما يلهون ويتنعمون، وتهلل وجوههم(٢)، وبهاء زيهم وشارتهم(٣)، بخلاف ما عليه المؤمنون والصلحاء: من شحوب الألوان والتقشف في الثياب، ﴿لِنَفْتِنَهُمْ﴾: لنبلوهم حتى يستوجبوا العذاب؛ لوجود الكفران منهم، أو لنعذبهم في الآخرة بسببه، ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾: هو ما ادّخر له من ثواب الآخرة الذي هو خير منه في نفسه وأدوم، أو ما رزقه من نعمة الإسلام والنبوّة، أو لأن أموالهم الغالب عليها الغصب والسرقة والحرمة(٤) من بعض الوجوه، والحلال ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾؛ لأن الله لا ينسب إلى نفسه إلا ما حل وطاب دون ما حرم وخبث، والحرام لا يسمى رزقاً أصلاً(٥)، وعن عبد الله بن قسيط عن رافع: قال: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ إِلَى يَهُودِيٍّ، وَقَالَ: «قُلْ لَهُ: يَقُولُ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ أَقْرِضْنِي إِلَى رَجَبٍ» فَقَالَ: وَاللَّهِ، لاَ أَقْرَضْتُهُ إِلاَّ بِرَهْنٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «إِنِّي لأَمِينٌ فِي السَّمَاءِ، وَإِنِّي لأَمِينٌ فِي الأَرْضِ، اْحْمِلْ إِلَيْهِ دِرْعِي الْحَدِيدَ»؛ فنزلت: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ (٩٥٥).

---

٩٥٥ ـ رواه الطبراني (١/ ٣٣١) رقم (٩٨٩) حدثنا الحسين بن إسحاق التستري ثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا عبد الله بن نمير ثنا موسى بن عبيدة عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبي رافع قال: أضاف رسول الله ـ ﷺ ـ ضيفاً فلم يلق عند النبي ـ ﷺ ـ ما يصلحه، فأرسل إلى رجل من اليهود: يقول لك محمد ـ ﷺ ـ فأخبرته فقال: «أم والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض ولو أسلفني أو باعني لأديت إليه، فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا =

---

(١) قوله «حرك» أي حرك الهاء بالفتح. (ع)

(٢) قوله «وتهلل وجوههم» الذي في الصحاح: تهلل وجه الرجل من فرحه، وهلهل النساج الثوب. أرق نسجه وخففه. (ع)

(٣) قوله «وبهاء زيهم وشارتهم» في الصحاح: الزي والشارة: اللباس والهيئة. (ع)

(٤) قال محمود: «معناه أن رزق هؤلاء المتمتعين في الدنيا أكثره مكتسب من الحرام... إلخ» قال أحمد: لولا أن غرض القدرية من هذا إثبات رازق غير الله تعالى كما أثبتوا خالقاً سوى الله تعالى لكان البحث لفظياً. فالحق والسنة أن كل ما تقوم به البنية رزق من الله تعالى، سواء كان حلالاً أو غيره، لا يلزم من كون الله تعالى رزقه أن يكون حلالاً، فكما يخلق الله تعالى على يدي العبد ما نهاه عنه، كذلك يرزقه ما أباح له تناوله وما لا ﴿لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون﴾ والله الموفق للصواب.

(٥) قوله «والحرام لا يسمى رزقاً أصلاً» هذا عند المعتزلة، ويسمى رزقاً عند أهل السنة. (ع)

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ﴾ أي: وأقبل أنت مع أهلك على عبادة الله والصلاة، واستعينوا بها على خصاصتكم، ولاتهتم بأمر الرزق والمعيشة، فإنّ رزقك مكفيّ من عندنا، ونحن رازقوك ولا نسألك أن ترزق نفسك ولا أهلك ففرّغ بالك لأمر الآخرة، وفي معناه قول الناس: من دان في عمل الله كان الله في[1] عمله، وعن عروة بن الزبير أنه كان إذا رأى ما عند السلاطين قرأ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [طه: ١٣١]... الآية ثم ينادي الصلاة الصلاة رحمكم الله، وعن بكر بن عبد الله المزني كان إذا أصابت أهله خصاصة، قال: قوموا فصلوا؛ بهذا أمر الله رسوله، ثم يتلو هذه الآية.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾

اقترحوا على عادتهم في التعنت آية على النبوّة، فقيل لهم: أو لم تأتكم آية هي أمّ الآيات وأعظمها في باب الإعجاز يعني القرآن، من قبل أنّ القرآن برهان ما في سائر الكتب المنزلة ودليل صحته؛ لأنه معجزة، وتلك ليست بمعجزات، فهي مفتقرة إلى شهادته على صحة ما فيها، افتقار المحتج عليه إلى شهادة الحجة، وقرئ: «الصحف»: بالتخفيف، ذكر الضمير الراجع إلى البينة؛ لأنها في معنى البرهان والدليل.

= مِّنْهُمْ﴾ إلى آخر الآية لأنه يعزيه عن الدنيا.

ورواه ابن جرير في التفسير (٨/ ٤٧٩) رقم (٢٤٤٥٦) قال الهيثمي في المجمع (٤/ ١٢٩): «رواه الطبراني في الكبير والبزار وفيه موسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف» اهـ.

وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٥٦٠) وعزاه لابن أبي شيبة وابن راهويه وابن المنذر، وابن أبي حاتم وابن مردويه، والخرائطي في مكارم الأخلاق، وأبو نعيم في المعرفة، وذكره البغوي في معالم التنزيل (٣/ ٢٣٦)، والواحدي في الوسيط (٣/ ٢٢٧).

قال الحافظ: قلت وقع فيه تحريف في الروايتين، وإنما هو عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبي رافع، ولعل ذلك من النساخ. والحديث أخرجه إسحاق، وابن أبي شيبة، وأبو يعلى، والبزار، والطبري، والطبراني من هذا الوجه مطولاً، وفيه موسى بن عبيدة الزبيري وهو متروك. واستدل على بطلان ما رواه أنه وقع فيه: أن قوله تعالى: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾ الآية نزلت في هذه القصة، وسورة طه مكية ـ وهذه القصة إنما كانت في المدينة كما في الصحيح. وهذا يمكن الجواب عنه؛ إذ لا مانع أن تكون الآية وحدها مدنية. وبقية السورة مكية. وأما حمله على تعدد القصة فلم يصب. انتهى.

---

(١) قوله «من دان في عمل الله كان الله في عمله» دان: ذل. ودانه: أذله، كذا في الصحاح. (ع)

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾

قرئ: ﴿نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾: على لفظ ما لم يسم فاعله.

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾

﴿كُلٌّ﴾ أي: كل واحد منا ومنكم، ﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾: للعاقبة، ولما يؤول إليه أمرنا وأمركم، وقرئ: «السواء»: بمعنى: الوسط والجيد، أو المستوي والسوء والسوأي والسوي تصغير السوء[1]، وقرئ: فتمتعوا فسوف تعلمون، قال أبو رافع: حفظته من رسول الله ﷺ.

عن رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ طَهَ أُعْطِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَوَابَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارَ» (٩٥٦)، وقال: «لاَ يَقْرَأُ أَهْلُ الْجَنَّةِ مِنَ الْقُرآنِ إِلاَّ طَهَ وَيَس» (٩٥٧).

---

٩٥٦ ـ تقدم برقم (٣٤٦).
قال الحافظ: أخرجه الثعلبي من رواية زياد عن الحسن مرسلاً. انتهى.

٩٥٧ ـ تقدم برقم (٣٤٦).
قال الحافظ: أخرجه ابن مردويه من حديث أبي بن كعب. انتهى.

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وليس بجيد إذ لو كان كذلك لثبتت همزة سوء والأجود أن يكون تصغير سواء كقولهم غطّى في غطا قلت وقد جعله أبو البقاء أيضاً تصغير السوء بفتح الهمزة ويرد عليه ما تقدم إيراده على الزمخشري وإبدال مثل هذه الهمزة جائز فلا إيراد. انتهى. الدر المصون.